www.alkottob.com

أغنية الصيّاد الصغير

www.alkottob.com

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

تصميم الغلاف للفنانة : نسرين مقداد

❑❑

محمد شاكر السبع

أغنية الصيّاد الصغير

*** روايـــة ***

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق – 2001

-1-

وضعت صرخة المندائي، الطويلة المولولة التي تشبه عواء الذئاب، النهاية غير السعيدة لذلك الحب الضاري الذي أضرم النار بخمسة بيوت من الطابوق وسبعة عشر كوخاً من القصب والبردي. الأقدام المهرولة في الممر المفضي إلى الردهة بلبلت الممرضين والمعاونين الطبيين الذين ما زالوا مذهولين من الصرخة. لم يتسنَ لهم أن يتمترسوا في مواجهة الرجال التسعة الذين اقتحموا الردهة بثياب ممزقة وبعيون مليئة بالدموع.. تسعة رجال من ذوي البشرة السمراء بدرجات متفاوتة شكلوا حلقة بشرية غاضبة حول السرير الذي يجلس عليه المندائي الذي يضم إلى صدره كتلة سوداء كبيرة مبقعة بلون وردي.

تفاقم الغضب في الحلقة البشرية.. امتدت منها أذرع عديدة إلى المندائي وإلى الكتلة السوداء:

-أيها النجس.. دعه.

-ألم يكفك أنك نجسته طوال حياته حتى تنجسه بعد موته؟

-أيها الصّبي[1] النجس.. اتركه.

بدا المندائي وكأنه لم يتأثر أو هو لم يخشَ كلمات الغضب هذه. كان يضم الكتلة السوداء المبقعة بلطخات وردية وهو يهتز فوق السرير مثل بندول الساعة.

كان فمه مفتوحاً على سعته وكأنه ما زال يصرخ ولكن دونما صوت. فجأة، التحمت الأذرع الثمانية عشر بالمندائي وبكتلة اللحم.

علا صوت ممرض من وراء الحلقة البشرية:

-هؤلاء الوحوش سيمزقون الجثة.

---

[1] الصَبّي أو الصُبيّ لفظة شعبية دارجة تطلق على الصابئي المندائي في العراق.

أذرع عديدة حملت المندائي ورمته على السرير المجاور بعنف جعله ينقلب بقوة ويسقط على الأرض من الجهة الأخرى. تمددت الكتلة السوداء المبقعة بلون وردي على السرير مرة أخرى. ثماني عشرة عيناً حمراء تسيل منها الدموع تتطلع إلى الرأس الملفوف بضمادات بيض.. تتطلع بغضب وحزن وبلاهة.

–هل مات؟

علا صوت نفس الممرض ثانية من ورائهم:

–إذا لم يمت قبل دخولكم فقد وضعتموه الآن في جيب الموت.

–إذا لم يسكت هذا اللسان فسأقطعه من دون تأخير.

–ألا يوجد أحد في هذا المستشفى يخبرنا أن كان ابن عمنا مات أم لا؟.. هل نجلب شخصاً من مستشفى آخر ليخبرنا بذلك؟

أجاب أحد الممرضين:

–مات.. كل مَنْ يستطيع النظر إليه يعرف على الفور أنه ميت.. أخبرنا ذلك الرجل الذي كان معه طوال يومين، وبدلاً من أن يتصرف مثل الرجال أخذ يصرخ كالنساء.

أشار أحدهم له أن يصمت. كان المندائي قد زحف باتجاه مقدم السرير ليتكئ على الخزانة الحديدية الصغيرة الموجودة قربه. مد ساقيه إلى الأرض مثلما تفعل النسوة النادبات، وغطى عينيه بطرف كوفيته وأجهش بالبكاء. عادت العيون الثماني عشرة تحملق بنفس تلك النظرة الحزينة البلهاء في الكتلة السوداء والرأس الملفوف بالضمادات.

–والآن، ماذا نفعل؟.. نتركه أم نأخذه؟

–نأخذه طبعاً.

–كيف نحمله؟

–كيف؟

–نعم.. كيف؟.. إن لحمه يكاد يسقط عن العظام.. أتستطيع حمله من دون أن يسقط ذلك اللحم؟

–لنلفه بالشرشف.

سُحب طرف الشرشف من تحت الوسادة التي رُميت بعيداً. جُرت الكتلة السوداء قليلاً إلى الأسفل. خلال ذلك ارتفعت همهمة واحتجاج الممرضين

والمعاونين الطبيين:

–لكن هذا شرشف المستشفى.. يعني شرشف الحكومة.

–يعني سرقة أموال الدولة في وضح النهار.

–ماذا؟.. لو كل ميت يلفونه بشرشف، فلن يبقى في المستشفى شرشف واحد بعد ثلاثة أيام.

انتهى الرجال التسعة من لف الكتلة السوداء بالشرشف. انقلبوا بحملهم متجهين إلى باب الردهة، اكتشفوا أن الممرضين والمعاونين الطبيين قد وقفوا لهم في منتصف الطريق إلى الباب.

–ماذا؟

–لن تخرجوا من الردهة بشرشف المستشفى.

شق أكبرهم طريقه من بين أخوته الثمانية.. قال للممرض بلهجة لينة:

–أنت لن ترضى بحدوث مذبحة بسبب شرشف عتيق مليء بالقاذورات.

لانت لهجة الممرض أيضاً:

–لكن هذا الشرشف مسجل بذمتنا.

–لو خرجت من هذا المكان فسترى سيارة وتابوتاً والكثير من البطانيات.. سنعيد إلى ذمتكم هذا الشرشف القذر حالما نصل إلى السيارة.

–في هذه الحالة سأرافقكم.

تقدم الرجال الأربعة الحاملين الشرشف من طرفيه، يتبعهم أخوتهم الخمسة والممرض الذي أصر على أن لا يتخلى عن الشرشف. تقدموا في الممر بسيقان أوهنها حزن يومين ثقيلين. في الباحة الكبيرة أمام قسم الطوارئ التي بدت وكأنها كانت حديقة كبيرة فيما مضى، لكن البنايات الصغيرة المتقاربة والممرات الإسمنتية التي كونت ما يشبه شبكة من طرق السابلة ثلّمت هذه الحديقة. رأى الممرض مثلما رأى الأخوة التسعة سيارة صغيرة يستقر على سقفها تابوت وحولها يقف ثلاثة أو أربعة من الرجال. تقدم أطول الرجال وكان ذا بشرة سوداء داكنة نحو الأخوة التسعة. سأل بهدوء:

هل مات؟

بكى حاملو الشرشف.. هز رأسه متمتماً:

–ليرحمه الله.

تلك الباحة التي ما زالت تنتصب فيها نخلات متباعدات امتلأت فجأة برجال ونساء وأطفال كما لو أنهم سقطوا من الفضاء ممتلئين بحزن سماوي ثقيل. خلال الدقائق الثلاث أو الأربع التالية لم يظهر من السيارة سوى سقفها، فالحزانى أحاطوها من كل جانب. حين رفع الأخوة التسعة التابوت من الأرض إلى سقف السيارة ظهر ممرض عملاق ضخم الجسم وذو وجه يشبه وجه النمر:

–إلى أين؟.. أيها اللصوص، تأخذون الجثة إلى أين؟

بعد أن وضع الأخوة التسعة التابوت على سقف السيارة استداروا نحوه، ووقفوا كمتراس بينه وبين السيارة. تدخل ممرض الردهة مخاطباً النمر:

–لم يعيدوا شرشف المستشفى.. لفوا الجثة به ووضعوه في التابوت.

لم يعر النمر لممرض الردهة أي اهتمام. نظر إلى المتراس البشري الذي تكورت قبضات أيديه، أيديه التي ما زالت ساكنة برغم توترها. ما كان بمقدور هذا النمر المتدرع بملابس المستشفى البيض أن يخيف هؤلاء الأخوة التسعة، وما كان قطيع من النمور ليفعل ذلك. لكن هذا النمر الأبيض ما كان يعرف ذلك، وما كان ليعرف ذلك أبداً، لذلك قال:

–تأخذون جثة من مستشفى بهذه البساطة؟.. أتعتقدون أنكم في سوق خضروات؟..

أنزلوها..

سأله الرجل الطويل ذو البشرة الداكنة:

–ماذا تريد أن تفعل بها؟

وجد النمر مَنْ يوجه إليه الكلام:

–سآخذها إلى صالة التشريح.. لا بد أن نعرف أسباب الوفاة.. ربما هناك جريمة...

قاطعه الرجل الطويل:

–إذن، ماذا كانت تفعل في مستشفاكم طوال يومين؟.. النار شوتها وأنتم سلختم جلدها، ثم تأتينا أنت لتقطّعها بمناشيرك وبلطاتك؟.. لن أدع أحداً يمزق ملّوكي..

لم يتزحزح النمر الأبيض، خلال ذلك ظهر الكثير من الرجال الذين يرتدون الملابس البيض والذين أحاطوا بالمتجمهرين حول السيارة مكونين طوقاً متماسكاً.

أيقن الجميع أن معركة على وشك الوقوع. لكن ثلاثة مفوضي شرطة خرقوا الطوق:

–ماذا؟.. ما الأمر؟

سأل المفوض الأطول قامة خلال ما كان يمر عبر المتجمهرين. أجاب أحد الإخوة التسعة:

–كدنا نقتل نجرس لنسترد ملّوكي، وهذا الرجل يريد أن يأخذه إلى غرفة التشريح ليقطّعه يا وليد.

–لن يأخذ أحد ملّوكي إلى أي مكان.

سقط فك النمر الأبيض. قال للمفوض وليد:

–أنت رجل قانون ومكانك معي و...

قاطعه المفوض وليد:

–لسنا الآن أمام قانون، وإنما أمام شاب ميت. يجب أن نحترم الموتى يا رجل.

–كيف يخرج ميت من المستشفى من دون شهادة وفاة؟

وضع المفوض وليد ذراعه على كتف النمر وجره بعيداً عن المتجمهرين:

–من أين تستخرج هذه الشهادة؟

أجاب النمر الذي فقد أنيابه ومخالبه:

–من موظف الإحصاء .

–لنذهب إلى هذا الموظف.

–لكن..

–لا تعترض كثيراً.. هيا.

اكتشف نمر المستشفى أن المفوضين الآخرين يسيران وراءهما مباشرة. أيقن أن المفوضين الثلاثة انتهوا من إلقاء القبض عليه. أيقن أن هذه البدلات الخضر الثلاث والنجوم البيض الصغيرة الملتصقة بالياقات حاصرت روحه الباسلة التي استمدت، خلال فترة طويلة جداً، عزيمتها من وراء غموض وغرابة ورهبة عالم صالة التشريح ذات المنضدتين المرمريتين البيضاوين وسائر آلات تقطيع الجسم البشري. لكنه لم يستسلم تماماً للقوة غير المرئية للبدلات الخضر، فنظام المستشفى بدأ يمد روحه المحاصرة بمصل مضاد لكل القوانين السائدة خارج سياج

المستشفى.

قاده المفوضون الثلاث إلى غرفة موظف الإحصاء. في الحقيقة دفعوه، وإن كان برفق، أمامهم في ممرات ضيقة مزعجة. في غرفة صغيرة وأمام منضدة يجلس وراءها شاب يضع على عينيه نظارة طبية وقف الأربعة. قال المفوض وليد وهو على وشك الانفجار.

–أنت موظف الإحصاء؟.. أعني أنت مَنْ يمنح الموتى الشهادات؟

هب الشاب ذو النظارات واقفاً على قدميه حين رفع رأسه ورأى ثلاثة مفوضين أمامه:

نعم.

–ماذا نفعل لنحصل على شهادة وفاة لشخص مات في مستشفاكم هذا الصباح؟

اختفت ملامح الارتباك من الوجه الذي يحمل نظارة:

–أين تقرير الطبيب المعالج؟

–إذن، نحتاج إلى ذلك التقرير.

التفت المفوض وليد إلى زميليه وخاطبهما:

–انتظرا هنا مع هذا الرجل.

وأشار إلى النمر الأبيض ثم واصل:

–سأذهب إلى قسم الطوارئ لأجد الطبيب المعالج.

أوقف موظف الإحصاء المفوض وليد في خطوته الثانية:

–تعني ذلك الذي مات هذا الصباح بسبب حروقه الشديدة؟

لم ينتظر جواباً. تناول من فوق المنضدة ملفاً وبحث فيه. قال وهو يقرأ في ورقة صغيرة:

–مالك ساجت؟

قال أحد المفوضين اللذين ظلا صامتين طوال الوقت الذي مضى:

–نعم.. هو.

رفع الشاب ذو النظارة رأسه ونظر إليهم:

–هذا هو تقرير الطبيب المعالج. وصل قبل ربع ساعة وكنت بانتظار أحد

لأحرر شهادة وفاة لهذا المنكود.

التفت المفوض وليد إلى النمر الأبيض.

–أتحتاج هذا التقرير؟.. أتريد نسخة من شهادة الوفاة؟.

تدخل موظف الإحصاء وكأن إهانة وجهت له:

–مَنْ يحتاج التقرير؟

ثم وجه كلامه إلى ممرض التشريح:

–أنت؟

أجابه المفوض وليد:

–أصرّ على نقل الجثة إلى غرفة التشريح ليعرف أسباب الوفاة...

ضج ذو النظارة:

–يعرف ماذا؟ إذن، ما الذي يعمله الأطباء المعالجون؟

اكتشف المفوضون الثلاثة أن ذلك النمر الأبيض انسل من الغرفة بخفة فاقت ملاحظتهم:

–والآن؟

تساءل موظف الإحصاء ناظراً إلى المفوضين الثلاثة ببلاهة أو بلادة، لا فرق. قال المفوض وليد:

–الآن حرر شهادة وفاة ملّوكي.

تساءل بنفس البلاهة أو البلادة:

–ملّوكي؟.. مَنْ يكون هذا؟

–هو نفسه مالك ساجت.

أخيراً جلس موظف الإحصاء على كرسيه. تناول سجلاً ذا أوراق مطبوعة وأخرج تقرير الطبيب المعالج من الملف. رفع رأسه وسأل:

–مالك ساجت.. المتوفى بحروق شديدة.. أين هوية الأحوال المدنية الخاصة به؟

سأل أحد المفوضين الآخرين:

–ما حاجتك لهذه الهوية؟

–وإذن، قل لي كيف أملأ فقرات شهادة الوفاة بالمعلومات؟.. ثم إنني يجب أن أمزق الهوية بعد أن أنتهي من تحرير الشهادة.

قال المفوض وليد:

–كيف تتلف وثيقة في ملف تحقيق لم يُغلق بعد؟

–ماذا تعني؟

أجاب المفوض الثالث:

–جرجرنا نصف القاطنين في محلة الماجدية إلى مركز الشرطة للتحقيق معهم خلال اليومين الماضيين.. ماذا نعتقد أننا نفعل في مركز الشرطة؟

أيقن المفوضون الثلاثة وهم يرون نظرات هذا الموظف ذي النظارات الطبية أنهم يتحدثون مع رجل ذي دماغ غليظ، عندئذ أحاطوه من الأمام والجانبين. قال المفوض وليد:

–أنت تعرف أن النار شوت صديقنا قبل يومين.. هو الآن في تابوت في ساحة المستشفى، هو الآن، يشوى بالشمس، ما الأمر؟

بدا شعور بالتعاسة يطفح على وجه الموظف ذي النظارات. وهكذا امتلأت حقول شهادة الوفاة بالمعلومات التي أخذت تنتقل من أفواه المفوضين الثلاثة إلى قلم موظف الإحصاء. وقعت وختمت بختم المستشفى الرسمي. أُعيد التابوت مرة ثانية إلى سقف السيارة. خاطب المفوض وليد الرجل الطويل ذا البشرة الداكنة:

–اصعد، فأنت مَنْ يذهب لدفنه في النجف.. أنت عمه وخذ معك ثلاثة أو أربعة من أولادك.. هيا.. لو ذهب أولادك به فسيرمون بجثة ابن عمهم إلى الكلاب في منتصف الطريق.. لا تثق طويلاً بحزنهم، هم الآن تحت صدمة الموت، غير أنهم في منتصف الطريق أو قبل ذلك سيفيقون من هذه الصدمة، وعندئذ سيلقونه في أول ترعة تصادفهم في الطريق.. هيا، اصعد يا عم جحيل.

ودفعه المفوضون الثلاثة ليجلس في مقدمة السيارة، ودفعوا ثلاثة من أولاده الذين ما يزالون ينوحون على ابن عمهم إلى المقعد الخلفي. دس المفوض وليد في يد العم جحيل المصعوق بدهشة غير متوقعة:

–أجرة السيارة دُفعت.. هذه النقود لتغطية تكاليف القبر والدفن ومصاريف الطريق.

حين أُغلق بابا السيارة وضع المفوضون الثلاثة أيديهم على التابوت وأطلقوا صرخات ألم محبوس في أعماقهم. تجاوبت معهم أصوات العويل من الواقفين قربهم، وارتفعت حدة العويل حين تحركت السيارة باتجاه باب المستشفى. تحركت ببطء في أول الأمر، وظلت تسير ببطء مخترقة شوارع المدينة الرئيسة يتبعها الرجال والنساء النادبات في موكب تشييع يزداد كبراً. بعد حوالي الساعة عبرت السيارة وتابوتها الجسر الملتوي مارة بالبيوت الخمسة المحترقة ثم الساحة السوداء التي كانت قبل يومين سبعة عشر كوخاً. كان المفوضون الثلاثة يسيرون خلف السيارة مباشرة بعيون أحالها البكاء حمراء قانية، وفي نهاية الموكب كان المندائي يسير متعثراً. علق صاحب مقهى قبل جسر المشرح عندما مر الموكب الحزين من أمام مقهاه:

–هذا أول سكير زنيم يشيّع بهذا الإجلال.

←←

-2-

وعلى العكس من قول صاحب المقهى، فملّوكي لم يكن سكيراً زنيماً، بل هو من ضرب العشاق الصادقين حتى الموت، لذلك تعامل مع الحب بنزاهة سمحت للنيران أن تضطرم في قلبه البالغ الهشاشة. وحين فتح أبواب الجحيم على جسده القميء الأحدب، ليخلّص قلبه الغض من عذاباته التي فاقت الحد، فإنه حاول أيضاً تفجير العذابات في ضمائر الآخرين.. حين فعل ذلك لم يكن في حقيقته مهزوزاً أو ضعيف الإرادة، فهو –كما يعرف كل قاطني الماجدية– ينتمي إلى أرومة اشتهرت بقوة الشكيمة والشجاعة التي تنقلب إلى تهور في معظم الأحيان، وما يزال الكثير من الناس في الماجدية يذكرون عمه جاسم وبسالته.. يذكرون معاركه المجيدة التي خاضها وحده، ويعيدون روايتها في مجالسهم ناعتين إياه بالشجاع الأسطوري الذي لا يخيفه أو يرهبه شيء، كما يذكرون أعماله التي لا يمكن لأحد أن يفكر بالقيام بها، وكانوا معجبين بما قام به من جنون حيث جعل نصف شارع الملعب يطفو سابحاً في نهر الكحلاء.

وتلك لم تكن حكاية مختلفة، لأن أحداً مهما كان خياله واسعاً، لم يجد نفعاً أو مصلحة في الإدعاء بقلع قار نصف شارع. على العكس، لقد تضرر القاطنون على جانبي ذلك الشارع، إذ تعيّن عليهم أن يخوضوا في الوحول طوال فصل الشتاء.. في ذلك الوقت، تناقل الناس همساً أقاويل تؤكد أن الأمر برمته خرج من دماغ نجرس المندائي كخدعة أو فخ للإيقاع بجاسم بين فكي الحكومة، فنجرس الذي كان ما يزال شاباً حينذاك، يعرف أنه لن يحصل على فلس واحد من جاسم لقاء تقيير قاربه، وهكذا دله على قار الشارع.

وعلى الرغم من أن جاسم، أو أي شخص آخر، يعرف تمام المعرفة أن قار الشارع لن يصلح للعمل إذا ما أُذيب مرة ثانية، فقد قلع قار نصف الشارع ونقله

عبر أزقة يصعب مرور العربات فيها لكثرة مجاري المياه القذرة السطحية فيها، وجعل منه تلاً أسود قرب كوخ نجرس. وهكذا وجد نجرس نفسه في وسط الفخ الذي صنعه لجاسم، واضطر أن يمضي ليلة حتى الصباح في نقل قار الحكومة بقاربه وإغراقه في منتصف النهر، كما اضطر أن يعيد تقيير قارب جاسم من قارة الخاص. لم يصدق مسؤولوا بلدية العمارة إن شخصاً قلع قار نصف شارع طوله أكثر من كيلو مترين ليستخدمه في إعادة تقيير قاربه فتركوا الأمر من دون تحقيق خوفاً من انفجار فضيحة. غير أن الناس في الماجدية رأوا بعد مرور عدة أيام قارب جاسم يشق ماء نهر الكحلاء بقاره الأسود الجديد، فتنهدوا متحسرين على نصف شارعهم العاري.

في اليوم الذي تزوج فيه أخوه ساجت ذهب إلى الجيش ليؤدي خدمته العسكرية. توقع كل مَنْ يسكن في الماجدية أن جاسم سيكون له شأن في الجيش لما يمتلكه من شجاعة وجرأة وتهور. توقعوا أنه سيقوم بمآثر يفتخر بها الذين يعرفونه إذا ما قامت الحرب ثانية من أجل تحرير فلسطين، وصلى الكثيرون لكي تنفجر هذه الحرب. بعد مرور ثلاثة أشهر طلبت سلطات الجيش في ثكنة العمارة من أخيه الكبير جحيل أن يحضر ليتسلم جثة جاسم، إذ أن أخاه مات في المستشفى العسكري بسبب النكاف. وهكذا ذهب جاسم الشجاع إلى قبره من دون تشييع مهيب على صوت موسيقى الجيش الحزينة.

باختفاء جاسم من الحياة، توازنت حياة أخويه الكبيرين، وعلى الأخص جحيل الذي اعتبره قاطنو الماجدية من رجال الله البسطاء الذين ليس بمقدورهم إيذاء نملة. جهد و أجهد نفسه بما يفوق التحمل أن لا يولد جاسم مرة أخرى في إهاب أحد من أولاده. كان من الممكن جداً أن يولد جاسم أكثر من مرة تحت جلود أبناء أخيه، غير أن جحيل كان حاسماً وذا شكيمة لا تلين، إذ قام بإبعاد أولاده منذ صغرهم عن النهر والقوارب وشباك صيد الأسماك، أبعدهم عن عالم عمهم وأصدقاء عمهم الذين دأبوا على قص مآثره على كل مَنْ هب ودب.

أبعدهم عن النهر الذي لا يبعد عن كوخه سوى أمتار قليلة، وزرعهم في ورش ومحلات تصليح السيارات الكائنة وراء مقابر المدينة، وطلب من أصحاب تلك الورش، أن لا يضربوهم بالعصي إذا ما حاولوا إثارة الشجارات أو الاشتراك فيها، وإنما يطحنون عظامهم بالمطارق. بذلك نجح جحيل في محاصرة جاسم في دم أبنائه ومنعه من الإطلال على الحياة ثانية.

بعد مرور عام على رحيل جاسم ولد مالك سليم الجسم، يعني دونما حدبة

في أعلى ظهره.. ولد ببشرة سمراء داكنة لا تختلف عن عميه وأولاد عمه التسعة. وعند اقتراب السنة الثالثة من عمره على الانتهاء فقد والده. في الشهر الأخير من تلك السنة ذبل ساجت ذبولاً سريعاً من دون توقف، وكأن شخصاً غير مرئي قد قام بامتصاص دمه. وحين عاد الدفانون من المقبرة بدأت والدته بالذبول، بنفس الذبول الذي امتص الحياة من جسد زوجها، وهكذا عاد الدفانون إلى المقبرة مرة ثانية. لم يقف مالك ذو السنوات الثلاث وحيداً أمام اليتم، إذا ألحقه جحيل بأولاده فأصبحوا عشرة. غير أن طفولته، التي لا يقطع أحد ما إذا كانت سعيدة أو تعيسة، لم ترهق جحيل بقدر ما أرهقت نجرس المندائي وكادت تهتك أعصابه.

لكنها ربطت بينهما كما لم تربط علاقة وثيقة بين أب وابنه. كان كوخ نجرس يطل على النهر، لا لأن ديانته المندائية قد فرضت عليه ذلك، بل عمله، فهو صانع قوارب ومصلحها، وهكذا تناثرت القوارب المعطوبة على ساحل النهر، وقامت كورة إذابة القار بين كوخه والنهر.

كانت البداية مريرة بالنسبة للمندائي الذي حاصره ملوكي بين الماء والنار منذ اليوم الأول الذي تدحرج فيه من كوخ عمه من وراء مخزن الأسماك إلى ورشة تصليح القوارب على ساحل النهر. بدا لنجرس في الأيام الأولى لظهور ملوكي بين قواربه أنه بات عاطلاً عن العمل، فهو يركض وراءه حين يتجه إلى النهر خوفاً عليه من الغرق، ويركض وراءه حين يتجه إلى كورته المكشوفة حيث يبقبق القار مطلقاً غازات كريهة الرائحة.

لم يساعد نجرس أحد من آل جحيل، فالأولاد جميعهم يهرعون إلى أعمالهم في كراج السيارات قبل طلوع الشمس، وحتى جحيل يسبق الشمس إلى عمله في علوة الحبوب. أما زوجته فقد يئس نجرس منها لإصابتها بداء المفاصل الذي أبطأ حركتها كثيراً. وجد نجرس نفسه وحيداً في مواجهة الحفاظ على ملوكي من الغرق في النهر، أو الموت احتراقاً في القار المبقبق في الكورة. أولى تدابيره التي قام بها، وكان سيقوم بها أي شخص آخر في مكانه، هو ربط ملوكي بحبل إلى قارب غاطس في الجرف حتى منتصفه، ألا إنه اكتشف أن الصغير لديه القابلية على فك أي عقدة مهما كانت مشدودة بإحكام. ما عاد نجرس يشعر بالراحة، أو يسترد طمأنينته وهدوء أعصابه إلا بعد أن يسقط الظلام ويعود ملوكي متدحرجاً إلى كوخ عمه. فكر نجرس بالفرار من ورشة عمله والتسكع في شوارع المدينة ومقاهيها، لكن الصيادين بحاجة إلى قواربهم، وما كانوا ليتسامحوا معه في هذا الشأن. في ضحى أحد الأيام، وحينما كان يزيل القار القديم بمطرقته وإزميله عن قارب

مقلوب بطناً إلى ظهر، هبطت عليه الفكرة.. هبطت عليه في وقت لم يكن يفكر في الموضوع أصلاً، هبطت مثلما يهبط الإلهام على الشعراء.. توقف عما كان يقوم به ونظر إلى ملوكي المربوط بحبل إلى القارب المقلوب الذي يعمل فيه.

قال يخاطبه:

–في الأقل لا أركض بين جهتين.. في الأقل أراقب جهة واحدة أيها الإبليس.

رمى أدواته من يديه وفك ملوكي من الحبل. حمله واتجه إلى كوخه.. لم يتأخر كثيراً في داخله. قال لزوجته:

–لا تدعيه يخرج أبداً.. سأعود سريعاً.

وعاد سريعاً مثلما قال. عاد حاملاً ثلاث سعفات. لم يدخل الكوخ، بل نادى من خارجه:

–ملوكي –تعال أيها الجرو الأسود.

اتجه الاثنان إلى الشاطئ حيث الورشة.

–اجلس أمامي.. إياك أن تغيب عن عيني.

كان ملوكي ينظر إلى نجرس، إلى يديه اللتين تعملان بسرعة. قطعتا كعوب السعفات، ثم ثقبتها، ثم مررتا حبلين من القطن المبروم في تلك الثقوب. قال نجرس يخاطبه وخطوط رفيعة من العرق تسيل متخللة لحيته النامية:

–أترى؟.. هذه طوافة.. هذه ستبقيك عائماً فوق الماء أيها الجرو الأسود.

ردد ملوكي:

–طوافة.. طوافة..

–بهذه الطوافة سأعلمك السباحة.. في الأقل أراقبك باتجاه الكورة.

–طوافة.. طوافة..

–نعم.. هي طوافة أيها الجرو الأسود.

سحب ملوكي إليه ونزع ملابسه. ثبت طوافة الكرب على ظهره شاداً حبالها إلى صدره.

لم يقاومه ملوكي، ولم يقاومه أيضاً أو يشرع بالبكاء حين حمله واتجه به إلى النهر:

–أنت لا تخاف من النهر؟

خوض نجرس في ماء النهر حتى وصل منتصف بطنه. نظر إلى ملوكي بدهشة، فهذا الطفل لم يتشبث برقبته خوفاً مثلما فعل ولداه حين علمهما السابحة. غير أن دهشته تبخرت عندما تذكر عمه جاسم. أنزله من صدره واضعاً إياه على ساعديه في الماء.

–حرك يديك ورجليك أيها الجرو الأسود.

انزلق ملوكي من فوق ذراعيه باتجاه منتصف النهر. جمد الدم في عروق نجرس، فملوكي يسبح مثل سمكة هائجة. صاح عليه:

–عد إلى هنا يا ملوكي.

انفتل ملوكي في الماء بخفة سباح ماهر وعاد بسرعة إلى حيث يقف نجرس في النهر:

–مَنْ علمك السباحة؟

أجاب ملوكي:

–طوافة.. طوافة..

فكر نجرس: هذا الطفل ليس شجاعاً فقط، إنما..

ترك جملته دون أن يكملها لأنه لم يجد الكلمة المناسبة. أثارت حماسة ملوكي رغبة نجرس في السباحة، فأمضى معظم الصباح مشاركاً إياه. كانا قد تجاوزا منتصف النهر أكثر من مرة.

على الجرف، خلال ما كان نجرس يلهث وملوكي يفك عقد حبال الطوافة، آمن نجرس أنه استطاع أن يتخلص من نصف همه. بعد شهر من تدريبه الملوكي على السباحة تحسنت حركات يديه وساقيه. أصبحت أكثر ليونة وهدوءاً. قرر أن يجعل ملوكي يسبح من دون تلك الطوافة.

–هيا يا ملوكي.

لم يتحرك ملوكي.. قال:

–والطوافة؟

–اليوم ستسبح من دونها.

حين تقدم نجرس مخوضاً في مياه الجرف تبعه ملوكي ثم ركض في الماء وانزلق مثل سمكة واثقة أنها تجيد العوم. لم يتبعه نجرس وظل يراقبه واقفاً في

مكانه. كان ملوكي قد وصل منتصف النهر ثم استدار وكر عائداً إليه:

–الآن تستطيع السباحة متى شئت أيها الجرو الأسود الشجاع.

على الساحل، إلى جانب الزورق المقلوب بطناً إلى ظهر، ارتدى ملوكي دشداشته وما زال جسمه يقطر ماءً. لم يقدر لنجرس أن يعرف، وما كان مقدراً لأي شخص آخر أن يعرف في تلك اللحظات ماذا دار في الرأس الصغير لملوكي. هو نفسه ملوكي لم ينطق بكلمة. ما قام به فقط، أنه سار إلى حيث الطوافة تستقر على الأرض، تناولها من طرف أحد حبالها الأربعة وجرها وراءه على الأرض ليختفي هو وإياها خلف مخزن الأسماك. من هذه اللحظة وحتى ثلاث سنوات أصبح في مقدور نجرس أن يتنفس ويأكل وينام ويعمل من دون خوف على ملوكي.

منذ تلك اللحظة عاد ملوكي إلى حيث الأطفال السابحين في الخليجين الصغيرين الكائنين إلى يمين مخزن الأسماك بعيداً عن ورشة المندائي.. خليجان منخفضان كثيراً عن كتف النهر، يفصل بينهما لسان طويل من الأرض يمتد في عمق النهر. ولأن هذا اللسان في مستوى كتف النهر فهو مرتفع أيضاً عن الخليجين. كانت ثلاث نخلات باسقات ومتباعدات ينبثقن من ظهر هذا اللسان. في الصيف، حين ينخفض مستوى ماء النهر كثيراً عن كتفه، تظهر جذور تلك النخلات في الضوء، جذور تبدو لمن يلمسها صلبة قاسية وكأنها قُدت من حجر.

وحتى حين لم يقدم إلى ورشة تصليح القوارب خلال الأصياف الثلاثة لتلك السنوات، كان نجرس وهو في الورشة يراه مثل سمكة هائجة ينساب بمهارة بين أجسام السابحين الصغار والكبار. في نهاية الصيف الثالث ولدت له حدبة في أعلى ظهره، حين سقط من فوق إحدى الصخور الخرسانية التي تشكل مع مثيلاتها الجدار الواقي لكتف النهر. لم يروِ أحد الحكاية الحقيقية لوجوده ممداً عند أقدام الجدار الصخري المائل في ذلك الغروب الكئيب، ولا حتى خلال السنوات العديدة التي تلت ذلك الغروب. حتى هو نفسه ملوكي لم يقل كيف سقط من فوق كتف النهر على الرغم من الأسئلة التي وجهها إليه عمه وأولاده التسعة، وحين خفت حماسة أولاد العم تجاه هذه الحادثة تركوه وحيداً مع آلام عظامه التي تلوت داخل جسده.

هكذا عاد إلى حيث قوارب نجرس الغاطسة في الجرف أو المقلوبة ظهراً إلى بطن على الساحل.

عاد بعد ثلاث سنوات لا ليتعلم شيئاً، بل ليتمدد على حصير من القصب

مكوراً جسده الصغير من الصباح إلى المساء، كان يزحف من مكانه نحو الظلال حين تحرقه الشمس، يزحف مطلقاً تأوهات خافتة يجهد أن لا يسمعها نجرس، وكأنه يخشى افتضاح سر. ما كان المندائي ولا عمه ولا أولاد عمه يصدقون أن حدبة ستظهر في أعلى ظهره بسبب تلك السقطة، فهم، وغيرهم كثيرون في الجوار رأوا العديد من الأطفال يسقطون من فوق كتف النهر. فيما بعد، بدا لهم كما بدا للآخرين من قاطني الماجدية، أن ملوكي هو الوحيد الذي أنبت له حظه البالغ الغرابة حدبة في ظهره جراء سقوطه من فوق كتف النهر.

من بين كل الساكنين في الجوار، كانت ثلاث فتيات في سن ملوكي، يعرفن أن حظ ملوكي العاثر لا دخل له بتلك الحدبة.. في ذلك الغروب الذي حاول ملوكي خلال السنوات التالية محوه من ذاكرته ولكن بلا طائل، في ذلك الغروب المقبض للنفس، حاول ملوكي أن يشارك في لعبة كانت تؤديها ساهرة ابنة صادق الصياد الأعرج الذي أصبح فيما بعد من الصفاطين الكبار، ونعيمة ابنة طارش جندي الإطفاء في بلدة العمارة، وسليمة ابنة صادق خياط عباءات الرجال في السوق الكبير. حاول ملوكي أن يحشر نفسه في لعبتهن، غير أنهن رفضن هذه المشاركة فأظهر براثن فحولته، عندئذ صفعته ساهرة فثارت ثائرة الذكر فيه، ألا أن ساهرة التي كانت أضخم جسماً منه دمرت ثورته بضربات متواصلة دافعة إياه باتجاه كتف النهر، ثم جعلها هياجها وانتصارها السهل على هذا الذكر إن تدفعه بقوة نحو الجدار الخرساني المائل ذي الصخور الناتئة.. تلك السقطة أرعبت الفتيات الصغيرات الثلاث، فقد تقاذفت الصخور الجسد الصغير من صخرة إلى أخرى. لم تترك ساهرة الجسد الذي أخذ يتلوى على رمل الساحل عند أقدام الجدار الخرساني، لم تتركه وتهرب، إنما نزلت مسرعة، قافزة فوق نتوءات الصخور مثل ماعز جبلي. أمسكت برقبة ملوكي ودقت رأسه برمل الساحل.. لم تخفها تشنجات الجسد ولا الزبد المتدفق من فم ملوكي.. شددت من قبضتها على الرقبة المتشنجة وخاطبته:

–إذا قلت مَنْ دفعك سأجعل أبي يذبحك بالسكين.

وطوال سنوات، وحتى بعد اشتعال ملوكي بنيران حبه من داخل جسده ومن خارجه، حافظت تلك الفتيات على سر السقطة، خلافاً لما قيل عن النساء في عدم محافظتهن على الأسرار. غير أن الذي يعرفه نجرس فقط، إن ملوكي كان يقاوم خلال شهور عديدة بعد تلك الحادثة، أو هو يحتمل بمقاومة رهيبة آلام عظامه التي تلوت مثل حيوان ضارٍ. لم يأخذه أحد إلى طبيب أو مستشفى، يعني

أنه لم يتلق علاجاً على يد أحدهم، وحين حمله نجرس إلى المستشفى، توقفوا عن الفحص الذي بدأوه، وطلبوا من نجرس ورقة من الشرطة، ونجرس يفهم جيداً ماذا تعني ورقة من الشرطة، وهكذا أعاده إلى حصير القصب ليتمدد عليه أياماً عديدة أخرى.

عندما تماثل ملوكي للشفاء كانت حدبة صغيرة قد استقرت في أعلى ظهره طاوية صدره إلى الأمام قليلاً وساحبة كتفيه إلى الأعلى قليلاً. تلك الحدبة جعلته يتحاشى الأطفال، فأمضى السنوات الثلاث أو الأربع التالية عاملاً بجد مع المندائي في ورشته. تعلم الصنعة على الرغم من صغر سنه، كما تعلم كيف يسيّر الزوارق بمختلف أحجامها في النهر بنفس مهارة الصيادين الكبار، وهكذا أطلقوا عليه لقب الصياد الصغير، ولم يكن صياداً أبداً، فهو لم يرمِ شبكة من أي نوع من النهر، بل لم يرمِ خيط السنارة، ومع ذلك واصل قاطنو الماجدية مناداته بالصياد الصغير. حين احتاجه أبناء عمه كيد عاملة إذا افتتح عدد منهم ورشاً خاصة بهم، جروه بالقوة، يعني بالصفعات والركلات، من ورشة المندائي إلى ورشهم، في تلك الورش تلقف أسرار الميكانيك والكهرباء الخاصين بالسيارات بعد سنوات قليلة، وأصبح ملوكي مطلباً عزيزاً لأصحاب السيارات في ورش التصليح، وكان في مضمار العمل قد أرضى الجميع، إذ أنه من ذلك النوع الذي يوصف بثور الحراثة. خلال سنوات عمله في ورش تصليح السيارات، اكتشف أولاد عمه أن ابن عمهم هذا فقد بسالته إذ هو مسالم أكثر من اللازم، ما كان أحد منهم قادراً على التصور أن ابن العم قد فقد بسالته منذ ذلك الغروب الذي بدأت فيه عظام ظهره بالالتواء، وأن روحه الشجاعة انهارت فوق جمر الآلام التي عاناها على حصير القصب، وإنه الآن لا يريد من الحياة التي جرت به أولاً بين الزوارق الغاطسة والأخرى المقلوبة بطناً إلى ظهر، وتجري به الآن بين سيارات همدت محركاتها، لا يريد سوى العيش بأمان لا أكثر.

وحتى بين العديد من السيارات والشاحنات الكبيرة ظل محتفظاً بلقب الصياد الصغير، لا لأنه يجب أن يُنادي به، بل دأب أولاد عمه على الصراخ به، وتداوله الآخرون من بعدهم.

في السنوات التي تلت والتي ابتعد فيها عن أماكن طفولته، عن ورشة المندائي، لم يتخلص من خوف ظل يتغذى وينمو في قلبه من ساهرة ابنة الصياد الأعرج، لذلك دأب على ألا يلتقي بها أبداً حتى عندما أخذ يتردد مرة أخرى على ورشة المندائي.

عندما اشتعلت حرب الثمانين كان قد بلغ سن أداء الخدمة العسكرية. غير أن حدبته وضآلة جسمه جعل الجيش يرفضه، فعاد مسحوق القلب ليتمدد على حصير القصب في ورشة المندائي مرة ثانية، باكياً بطولات ما كان سيحققها غيره. لكن المندائي، هذه المرة، ركله بقوة آمراً إياه أن يقوم بإسقاط قار قديم عن زورق مقلوب على جانبه فوق الساحل. فر من وجه المندائي إلى ما وراء مخزن الأسماك الكبير، إلى الأزقة التي تفضي إلى شارع الملعب. فجأة، وجد نفسه وجهاً لوجه مع ساهرة فتسمر في مكانه.. تسمر في مكانه ليس خوفاً ولا هلعاً من الفتاة التي أنبتت له حدبة وهددته بالذبح، لكن شيئاً آخر.. شيئاً آخر تماماً تلوى في قلبه مثلما يتلوى خيط من البرق في السماء.. لهث وهو واقف أمامها.. لهث حتى كاد يسقط من اللهاث. أما هي فلم تلهث مثله، بل ابتسمت له. لم يصدق أنه يرى ابتسامة في هذا الوجه، لكنها ابتسمت له وخاطبته:

–كيف حالك ملوكي؟

لا يعرف ماذا قال، بل لا يعرف أن كان قد أجابها أم لا. ومرت من جانبه كما يمر طيف بنائم. حين أفاق وجد نفسه جالساً على طرف لسان الأرض.. تماماً مقابل المكان الذي سقط منه قبل سنوات لتنبت له حدبة.

←←

-3-

عاد الدفانون في ضحى اليوم التالي. بحث جحيل عن أولاده الستة، ووجدهم متناثرين في مقاهي سوقي الخضروات والخردة. رووا لأبيهم الحزين عن الهلع الذي عصف بهم يوم أمس، وجعلهم يفرون من مجلس الفاتحة، يفرون من بيتهم، ليتفرقوا في المقاهي. كان جحيل صامتاً يستمع إليهم ليحصل على المزيد. رووا له كيف نصب المفوضون الثلاثة أكبر سرادق شهدته المدينة، وما كان جحيل بحاجة إلى وصف هذا السرادق، فقد رآه في الضحى عندما عاد إلى بيته مع أولاده الثلاثة الذين رافقوه إلى المقبرة. كما رووا لأبيهم أن المفوضين الثلاثة استطاعوا أن يقنعوا أو يغشوا مسؤول المواد الغذائية في المحافظة ليصرف لملوكي تعيينات شهيد حرب، فجلبوا كميات كبيرة من السجائر والشاي والقهوة والسكر. في البداية، لم يستخدموا مسجلات الصوت، بل جاؤوا بقارئ قرآن، قارئ من الصعوبة أن يخطر في ذهن أحد من الجوار: الشيخ فالح إمام جامع حي الحسين.. مَنْ يصدق أن هذا الشيخ ذا الصوت الذي لا يضارعه صوت أعظم المطربين سيتلو آيات القرآن الكريم في مجلس فاتحة ملوكي؟.. ثم بدؤوا.. وهذا هو الذي لا يصدق، وظننا أنهم قرروا السخرية من ملوكي يا أبانا.. بدأوا مجلس الفاتحة في الساعة الواحدة ظهراً...

–الواحدة ظهراً؟.. هل شربتم العرق أمس؟

نفوا ذلك، وكانوا صادقين، وهذا ما أدهش أباهم وأصابه بالحيرة، فموت ابن عمهم سبب لا يقاوم ومناسبة لا يمكن إضاعتها لكرع العرق . بعد عشر دقائق من الإصغاء إلى أحاديث أولاده الستة، بدأ الهلع ينتقل تدريجياً إلى جحيل.. أيقن أنه سيضطر إلى بيع بيته ليسدد التكاليف الباهظة التي أسرف في تبذيرها المفوضون الثلاثة. خلال الدقائق العشر الماضية، روى الأولاد لأبيهم كيف أن

الرجال والنساء والأطفال هرعوا من كل أزقة وشوارع الماجدية، وغص مجلس عزاء النساء الذي أقيم وراء مخزن الأسماك الكبير، وكاد يكتسح ورشة نجرس ويلقي بكل أدواته وزوارقه المقلوبة في النهر لولا وقوف المندائي في وجوه اللاطمات النادبات وعصا غليظة في يده. أما مجلس فاتحة الرجال، ذلك السرادق الكبير، فلا أحد يعلم كيف امتلأ بالمعزين، وكيف وقف الفائضون أمامه وحوله والأطفال يتقافزون بينهم. كل هذا الذي رواه الأبناء لأبيهم صحيح، فقد تناقل الناس في الماجدية أن المفوضين الثلاثة ذبحوا خروفاً وطبخوا ثلاثة صناديق من الدجاج البرازيلي. ورأى القادمون الأوائل قزانين كبيرين تضطرم النيران تحتها في الأرض العراء إلى جانب السرادق في تلك الساعة، نعني الساعة الواحدة ظهراً يا أبانا.

أخذ الرجال والنساء والأطفال يأكلون اللحم والرز ومرق الباذنجان من الساعة الثانية والنصف ظهراً حتى منتصف الليل. ومنذ العصر عبر الكثير من الجنود من محطة السيارات في الجانب المقابل، أولئك الجنود الذين لم يجدوا السيارات التي تأخذهم إلى مدنهم البعيدة، عبروا ليأكلوا ويشربوا الشاي والقهوة.

غير أن الذي لم يره أولاد عم ملوكي الستة –لأنهم فروا من باب السرادق خوفاً من مطالبتهم بالتكاليف– الدفاتر الثلاثة التي فتحها المفوضون الثلاثة لتسجيل أسماء المعزين المتبرعين بالمال لمجلس العزاء. قرر جحيل في ذلك الضحى أن يدافع عن بيته، عن أساساته وسقفه وغرفه وأبوابه وشبابيكه.. قرر أن يقاتل دون فقدان هذا البيت جراء تبذير المفوضين الثلاثة.

زاغ بصر جحيل أمام السرادق، لا لأنه مكتظ بالمعزين، ولا الكثيرين المنتظرين خارجه، بل لأنه رأى ثلاثة خراف مربوطة إلى قوس السرادق الأول، لأنه رأى ركاماً غير منظم من صفائح السمن علامة الراعي وإلى جانبها ركاماً آخر من شوالات الرز زنة مائة كيلو غرام.

لكن مرآه جعل المفوضين الثلاثة الجالسين في باب السرادق ينتحبون بصوت عالٍ تجاوبت معه النساء من وراء مخزن الأسماك بصراخ وعويل ولطم على الصدور والزنود بحماسة. ضاع جحيل وأولاده الستة في أحضان المفوضين الثلاثة، ثم في أحضان عشرات الرجال المنتحبين الذين لا يعرف جحيل ثلاثة أرباعهم. غرق جحيل في بحر من الحزن يجهل أعماقه، أو هو يجهل كيف غاص فيه. وما كان قادراً أن يصدق وهو الرجل الوقور أنه سينتحب ويبكي كالأطفال، لكنه بكى وانتحب، ليس مجاراة لتيار الحزن الذي لا يقاوم والذي هدر

من داخل السرادق جارفاً إياه، إنما انتحب وبكى من أعماق قلبه المثخن بالجراح لما عاناه ابن أخيه المسكين.

هكذا وضع كوفيته على عينيه وبكى كما لم يبكِ أبداً.

حين هدأ، يعني حين لم تبقَ دموع في عينيه ليسكبها، أجلسه المفوضون الثلاثة في مدخل السرادق على الأريكة الأولى ليتقبل التعازي. دار صبيان الخدمة عليه، سقوه قهوة مرة، ووضعوا تحت أنفه طبقاً مليئاً بالسجائر، قدموا له استكان الشاي. أجال نظره في الجالسين أمامه وحوله، وزاغ بصره ثانية، فهو لم يتوقع أن يلتقي بنصفهم في الطريق، أو حتى بأقل من نصفهم بكثير.. إنهم علية القوم في الماجدية: تجار حبوب وصفاطو أسماك وتجار ماشية وما شابه ذلك. فكر بقنوط: أكل هؤلاء جاءوا ليشاركوا في عزاء ملوكي؟.. ملوكي بالذات؟.. لكنه في اللحظة التالية، تذكر المفوضين الثلاثة، فشعر بقلبه يغوص، ومع ذلك تفهم الحال وقبله على مضض.

حاول أن يمحو تصوره الخاص بفقدانه البيت، حاول أن لا يفكر بهذه الطريقة، أو هو حاول أن يتوقف عن التفكير تماماً، فهو لم يناصب هؤلاء المفوضين الثلاثة العداء، ولم يتذكر أنه وقف في منتصف طريقهم لأي سبب من الأسباب، ثم إنهم بمثابة أولاده إضافة إلى إنهم ليسوا غرباء بالنسبة إليه أو إلى عائلته.

وهذا صحيح جداً، فهؤلاء الثلاثة لم يقدموا من أمكنة أخرى، فقد ولدوا ورضعوا حليب أمهاتهم وتعلموا المشي في الماجدية. كان يعرف آباءهم ويرتبط معهم بوشائج الصداقة والجيرة، فوليد هو ابن الحلاق كريم في سوق النجارين، وعدنان هو ابن الصياد الأعرج صادق، وجعفر هو ابن شاكر فراش المحكمة ومناديها. فكر جحيل: هل يمكن أن يتخلى عني هؤلاء الآباء؟.. هؤلاء أصدقاء سني عمري، هل يخذلونني؟.. ما كان هلع جحيل من المفوضين الثلاثة مبالغة ولدت من رحم وهَمْ.. فهم –كما يعرف الجميع– يتكئون على سلسلة طويلة وغامضة من الإجراءات القانونية المثيرة لحيرة الآخرين، الآخرين الذين يواجهون في منتصف الطريق أو في نهايته رأس القانون من أكثر الزوايا ظلاماً. بدا للجميع، لجميع أولئك الذين أجبرتهم الظروف، أو حظهم العاثر على الاحتكاك بهم أن المفوضين الثلاثة هؤلاء ولدوا بموهبة اللعب بالقانون بمهارة لا يمكن التغلب عليها. وهذا ليس الأمر كله، وإنما هناك الدهشة التي ترميهم في دوامة حيرة أكبر، تلك الدهشة النابعة من تنكر المفوضين الثلاثة لهم، هم الذين

يعرفونهم منذ ولادتهم، وكانوا يستطيعون تذكر طفولتهم وصباهم. فقد ولد وليد وعدنان وجعفر في وقت كانت الماجدية قد انتهت من مخاض وجودها كمحلة نامية. حين فتحوا عيونهم على ما حولهم ومدركين الأمور إدراكاً سليماً لا لبس فيه كانت الماجدية عامرة ببيوتها وشوارعها التي لم تثلمها وتهدها جرافات البلدية. ولد عدنان في بيت كان من ضمن صف البيوت الطويل الذي يبدأ من بيت رئيس البلدية المتقاعد وينتهي عند مخزن الأسماك الكبير. كان ذلك الصف يشكل جانباً من جانبي شارع الصيادين القديم. وولد وليد في شارع الملعب، أما جعفر فقد ولد في الأزقة البعيدة في عمق شارع الجامع. ثلاثة شوارع متباعدة تشكل قياسات جغرافية بالغة الاتساع بالنسبة لتصورات الأطفال. لكن النهر.. نهر الكحلاء الذي ما يزال يحتفظ حينذاك برهبة نهر حقيقي، جمعهم على شاطئه القريب من جسر الكحلاء. لم يعرفوا خلال صيفين أو ثلاثة من السباحة والعبث في الماء، ما يمكن أن تفعله الصداقة. مع ذلك فصداقتهم لم تنبثق أو تتوحد في مياه النهر على الرغم من لقاءاتهم المتكررة طوال أيام عديدة جداً. لكنها ولدت وراء سياج مدرسة السلام الابتدائية في الجانب الآخر من النهر، ولدت من النوايا السيئة والطباع المشاكسة، ففي اليوم الأول لهم في المدرسة، وجدوا أنفسهم بعيدين عن الماجدية بمسافة خمسين متراً هي طول جسر الكحلاء إضافة إلى ثلاثين متراً هي المسافة بين الجسر والمدرسة، وجدوا أنفسهم في عالم بعيد جداً عن موطنهم، فالماجدية، في كل الأحوال، كانت توفر لهم الطمأنينة والأمان. وواجهوا في ذلك اليوم أيضاً، أطفالاً قدموا من محلتي السرية والمحمودية، ولم يكونوا أقل شراسة وعدوانية من أطفال الماجدية. اكتشفوا في الأيام التي تلت اليوم الأول ذاك وداعة ومسكنة الأطفال المندائيين الساكنين في محلة السرية، كما اكتشفوا أن تلك الوداعة كانت سبباً قوياً في تفجير عدوانية الأطفال الآخرين على الرغم من قساوة المدير والمعلمين. وهكذا بدت العلائم الأولى لعصبة خشنة وشرسة مؤلفة من وليد وعدنان وجعفر.

شقت هذه العصبة طريقها متسلقة الصفوف بين خوف الطلاب منها وبين انهيال عصي المدير والمعلمين عليها. ثم أصبح لهذه العصبة سمعة وشأن، إذ إن مَنْ كان يلوذ وراء صفير عصي المدير والمعلمين معتقداً إنه أفلح في الانتقام منها، كان يُطرح أرضاً خارج سياج المدرسة. ثم تكشفت هذه العصبة حين وصلت الخامس الابتدائي عن قدرات رياضية فذة في كرة القدم والسلة وألعاب الساحة والميدان، ووجدت مَنْ يدافع عنها في حضرة المدير الذي أدارت رأسه الكؤوس

الفضية اللامعة من مختلف الأحجام التي ملأت السطح الأعلى لخزانته، دأب معلم الرياضة، المدافع المستميت عن هذه العصبة الوارثة لكل الصفات الخشنة للقاطنين الأوائل في الماجدية، على القول في حضرة كل إنسان وليس المدير والمعلمين فقط:

–سيكون هؤلاء الثلاثة من ألمع نجوم الرياضة في المستقبل، إنهم سيجلبون المجد الكبير ليس لمدرسة السلام فقط، بل لمدينة العمارة برمتها.

لكن أرخميدس وقف لهذا المجد الذي ما يزال في بطن الغيب بالمرصاد. ما كان أحد بمقدوره، سواء من معلمي المدرسة أم من طلاب المدارس المتوسطة والإعدادية الذين تطوعوا لتدريسهم أن يحشر قانون أرخميدس الخاص بالأجسام الطافية في أدمغة هؤلاء الثلاثة. كذلك عجزت عن ذلك كل الأواني والقدور التي أغطسوها أو أغطسها الآخرون أمامهم في طسوت مليئة بالماء. وهكذا أمسكهم أرخميدس من سيقانهم وأجبرهم على البقاء سنة ثانية في السادس الابتدائي. أضمروا كراهية سوداء لأرخميدس، فمزقوا صورته في كتاب العلوم، وتمنوا طوال السنة الثانية وقوع أرخميدس بين أيديهم ليقلعوا لحيته شعرة شعرة. غير أن الحظ حقق لهم أمنيتهم بطريقة أخرى، عندئذ وجدوا النجاح يقودهم إلى المدرسة المتوسطة. إلا أن ذلك الحظ لم يواصل السير معهم في طريق دراستهم، فقد تخلى عنهم حالما أطلت لحية أرخميدس عليهم مرة ثانية من كتاب العلوم للسنة الدراسة الأولى للمتوسطة، وطوال سنتين لم يفلحوا في الخلاص من التخبط بين الأجساد الغاطسة والماء المزاح. وحين فلتوا من ذلك التخبط، وجدوا أنفسهم على الرصيف خارج المدرسة. كان ذلك آخر عهد لهم مع المدرسة، فقد أكدوا لآبائهم أنهم لن يذهبوا إلى المدرسة المسائية لمواصلة الدراسة للسنة الثالثة، لأن أرخميدس ينتظرهم وراء باب الصف. تقبل الآباء المصير الذي آل إليه الأبناء الثلاثة، تقبلوا ذلك لأنهم متيقنون من جلافة أرخميدس، بل لقناعتهم ورضاهم بما وصل إليه أبناؤهم من مراحل في الدراسة، فلا هم ولا آباءهم ولا أي فرد من عوائلهم وصل إلى نصف أو حتى إلى ربع ما وصل إليه هؤلاء الثلاثة. كان هذا اليقين الأبوي ضرباً من مفخرة جاهدوا في سبيل عدم إخفائها.

ولأن أعمارهم كانت ما تزال تسمح لهم بالسباحة في النهر واللعب مع الصبيان، فقد أمضوا أوقاتاً سعيدة من اللعب الصاخب، ذلك اللعب الذي دفع بأترابهم إلى تحاشيهم وعدم الاحتكاك بهم.

كانوا ينزلقون نحو الخشونة والعنف تدريجاً. وهكذا توقع الكثيرون أن الثلاثة

أشقياء ستشهد الماجدية ولادتهم في القريب العاجل. لم يكن هذا أمراً غير طبيعي، فهذه المحلة أنجبت في الماضي العديد من صنف هؤلاء الرجال لكن الأحداث التي جرت فيما بعد، يعني ماجرى في السنوات الأخيرة من العقد الستيني، خالفت كل ما هو متوقع، أو ما هو مؤكد أنه سيقع ومثلما فقدت الماجدية صفين من بيوتها القائمة بين جسر الكحلاء ومخزن الأسماك الكبير فبدت هذه المحلة وكأنها كشفت عن عريها الداخلي أمام النهر، فَقَدَ وليد وعدنان وجعفر ذلك المصير المؤلم والغامض الذي اتفق الكثيرون على أنهم سيصلون إليه لا محالة. ما كان أولئك المتوقعون على خطأ في نظرتهم وقياسهم للأمور، وكان معظمهم من المشهود لهم بالنظر السديد، غير إنهم أهملوا المعجزات في توقعهم لمستقبل وليد وعدنان وجعفر، وما كان أحد ليجرؤ على لومهم على هذا الإهمال، إذ ليس من المتعارف عليه، أو ليس من المعقول أن يتوقعوا قيام انقلاب لكي يغير مصير ثلاثة فتيان. لكن انقلاب تموز 1968 قام، لا ليغير مسار حياة ثلاثة فتيان، بل ليغير مسار شعب بأكمله.

بعد مرور خمسة أشهر على حدوث الانقلاب، أعلنت مدارس الشرطة عن دورة للشرطة الممتازة. لم يتأخر نعيم الجويسم العائد من الإبعاد مؤخراً والذي شغل مركزاً قيادياً في تنظيم الحزب في العمارة، في إرسال كل العاطلين من حملة الشهادة الابتدائية، الذين تؤهلهم أعمالهم للانخراط بهذه الدورة، وكان وليد وعدنان وجعفر من ضمن هؤلاء المتسكعين، لم يصدق أي أب من الآباء الثلاثة، أو إنه لم يثق بما قام به الرفيق نعيم الجويسم، وحين سمع الآباء الثلاثة في مساء أحد الأيام أسماء أبنائهم يذكرها المذيع من الراديو ضمن قائمة طويلة جداً من الأسماء، أيقنوا للمرة الثانية، أن أبناءهم حققوا مفخرة أخرى أُذيعت على الملأ.. مفخرة ظلوا يتحدثون بها طويلاً، إذ أن لا أحد منهم ولا من آبائهم أو أجدادهم، ولا حتى من معارفهم، ليس في الماجدية فقط، بل في طول المدينة وعرضها أُذيع اسمه من الراديو.

ولأول مرة، منذ عرفوا بعضهم، بدأ الآباء الثلاثة يجتمعون في مقهى الصيادين كل ليلة أو في دكان حلاقة كريم عصراً. كانوا سعداء في البداية، سعداء لأن الأمور أو المصائر انقلبت رأساً على عقب، فبدلاً من مطاردة الشرطة لأبنائهم المقدر عليهم أن يكونوا من الأشقياء الخارجين على القانون، أصبح أبناؤهم من رجال الشرطة الذين سيضعون الحديد في أيدي وأرجل الأشقياء خلال جلساتهم التي بدأت تطول تذكروا ما فعله رجال الشرطة السابقون، وبدأوا يروون

لبعضهم قصصاً لأحداث حقيقية وقعت في الماضي، وقعت لهم ولذويهم ومعارفهم في الجوار، وكيف أن تلك الأحداث ما كانت تقع، أو تحدث بالشكل الذي جرت فيه لولا رجال الشرطة وبالتدريج بدأو يسحبون الثقة من أولادهم.

–سيصبحون من رجال الشرطة؟.. كيف وافقنا على ذلك؟

لكن الاحتجاج على هذا المصير قد فات أوانه، فالأولاد الثلاثة التحقوا بمدرسة الشرطة في بغداد منذ أكثر من إسبوع. ثم تحولت اللقاءات إلى مجالس هم ونكد، وبالأخص حين دأبوا على تبادل أسئلة تنتهي دائماً عند مثالب رجال الشرطة في العهود الماضية. كان شاكر فراش وحاجب المحكمة بحكم ما يمتلك من معرفة وخبرة في هذا المجال أكثرهم يأساً وتشاؤماً من المصير الذي سيصل إليه الأولاد الثلاثة. في أحد لقاءاتهم الليلية في مقهى الصيادين تساءل كريم الحلاق:

–ممتازة؟... ماذا يعنون بالشرطة الممتازة؟

أجاب الصياد الأعرج:

–أعتقد أنهم يعنون أن هذا الصنف من الشرطة سيأخذ رشوة من الدول المجاورة بعد هذا الحديث كف الآباء الثلاثة عن اللقاء، وكفوا أيضاً عن مناقشة أمور وأحداث لم تقع بعد، ولكن جملة: "يأخذون رشوة من الدول" ظلت تتردد في آذانهم برنين ذي إيقاع خاص فترة طويلة من الزمن.

وحتى بعد أن تخرجوا في مدرسة الشرطة الممتازة، ظل العبث الصبياني ملازماً لهم على الرغم من ملامح الرجولة الأولى التي ظهرت عليهم وكأن مدرسة الشرطة لم تكتف بإعدادهم كرجال يجهدون من أجل المحافظة على سلامة القانون، بل قامت بمط أجسامهم ولصق شوارب تحت أنوفهم وإنماء لحى من الواجب حلاقتها يومياً كنمط أساسي من الواجبات العسكرية التي لا يمكن بأي حال إغفال العين عنه. وفيما حافظ عدنان وجعفر على طوليهما استطال جسم وليد ليصبح أطول الثلاثة. اختارتهم مديرية الأمن العامة ليكونوا من رجالها بعد أن درس المسؤولون ملفاتهم، يعني درسوا سلوكهم داخل المدرسة، ووجدوا، أنه على الرغم من النظام العسكري الصارم للمدرسة والتربية الحزبية المتواصلة لتهذيب الأفكار والسلوك، أن هؤلاء الثلاثة دأبوا على العنف والتعامل الخشن بين الخمسمائة طالب في المدرسة، فاعتبروهم من الفتيان الذين يمتلكون أرواحاً باسلة وفظة لا تقبل التدجين. غير أن هذا الأمر لم يكن يجري وفق هذا الفهم بالنسبة لوليد وعدنان وجعفر، فهم واجهوا مثل هذه التجربة المريرة في السنة الأولى من

مدرسة السلام، وكانوا قد ابتعدوا عن محلتهم مسافة خمسين متراً.. خمسون متراً جعلهم يتكتلون في عصبة عنيفة ضد الغرباء، وهم اليوم يواجهون نفس التجربة وموطنهم يبعد عنهم بمسافة ثلاثمائة وثمانون كيلو متراً، فتماسكوا وازدادوا شراسة وعنفاً أكثر من السابق، وعندئذ حسب لهم الطلاب الخمسمائة القادمون من جميع مدن العراق حساباً خاصا، وهكذا حصل هؤلاء الثلاثة على الأمان.

عادوا إلى مدينتهم من دون ملابس خضر، وبذلوا جهداً هائلاً في إقناع آبائهم إنهم انخرطوا في سلك الأمن، وحتى مسدساتهم المخيفة تحت ملابسهم المدنية لم تسند حججهم تمام الاسناد. لكن القناعة هبطت على الآباء من دون حاجة إلى تبريرات تستند إلى وثائق أو حجج حكومية، قناعة ما كانت تلك المسدسات الثلاثة قادرة على سوقها باتجاه عقول أولئك الآباء الثلاثة قدرة الرواتب الثلاثة التي وضعت في أيديهم. خلال عام لم يكن أي منهم مضطراً للحديث عن عمله وراء جدران مديرية أمن المحافظة، لأن أحداً من قاطني الماجدية لم يكن متلهفاً لمعرفة ما الذي يقومون به هناك. خلال ذلك العام غاص عدنان وجعفر في المكاتب الداخلية للمديرية، فيما امتطى وليد سرج دراجة نارية، منطلقاً بها عبر شوارع المدينة موزعاً البريد الرسمي. فيما بعد، خلال الشهرين أو الثلاثة التي مرت طالت يد الأمن المتلاعبين بأسعار المواد الغذائية ومهربي الأسماك من الصفاطين من المحافظة إلى بغداد، وكانت تلك اليد ذات قبضة قوية وشديدة حيث ذهب كل أولئك إلى الحبس مع دفع غرامات مالية كبيرة.. تذكر الآخرون الذين يخرجون على القانون بين فترة وأخرى والذين ما يزالون بعيدين عن تلك القبضة، تذكروا وليد وعدنان وجعفر، فبدأوا ينعتونهم حين يتكلمون معهم بـ "أولادنا الطيبين". عام الأولاد الطيبون في بحر من الدعوات والولائم التي لم تغب عنها المشروبات المسكرة. في أول الأمر، جرت تلك الولائم في البساتين المتاخمة للماجدية كضرب من التكتم، جند لها الصفاطون عدداً من الوسطاء الذين يمكن وصفهم بالدهاء. وانسحبت تلك الولائم من تحت أشجار النخيل إلى البيوت، إلى الغرف الداخلية العصية على استراق السمع، ثم خرجت من البيوت إلى النوادي الليلية، إلى أنظار وأسماع الجميع، طوال شهرين أو ثلاثة أشهر من العوم في بحر جميع أنواع المشروبات المسكرة صمد الشرطة الممتازون الثلاثة أمام فيض الأسئلة الملتوية المتدفقة من الوسطاء أولاً، ومن الصفاطين أنفسهم فيما بعد. كانوا يشربون حتى الثمالة، على الرغم من أنهم بدأوا شرب الخمرة حديثاً، إلا أنهم لم يسمحوا لأبخرة المشروبات أن تتوهج في أدمغتهم فتضيء المسالك والدروب

الغامضة لأفخاخ الأمن التي لم تفلت منها سيارة هاربة. وهكذا بدا الشرطة الممتازون الثلاثة في عيون الصفاطين ووسطائهم ضرباً من رجال غامضين، وندموا إذ إنهم كشفوا لهم بعض أسرارهم الصغيرة خلال محاولاتهم اصطياد المعلومات.

أخيراً، تحرروا من كونهم رجال أمن، يعني أنهم تحرروا من الصمت والغموض وإنكار هوياتهم الحقيقية وعملهم، على الرغم من أن أحداً ليس في الماجدية فقط، بل في طول مدينة العمارة وعرضها لا يجهل أنهم من رجال الأمن. لكنهم أخيراً تحرروا، والحقيقة أنهم طُردوا بعد أن ضُربوا وسُجنوا ثم رُميوا إلى الشرطة المحلية. لم يعرف أحد أسباب طردهم وسجنهم ونقلهم طوال السنوات التي تلت.. قيل إن أحد المسؤولين الكبار في أمن المحافظة قال في مجلس خاص جداً:

–كانوا يسرقون بنزين سيارات الأمن

لكن هذا الكلام جاء متأخراً جداً، متأخراً إلى حد أن الناس في الماجدية، وحتى الناس في عموم المدينة، نسوا أن هؤلاء الثلاثة كانوا من رجال الأمن. ولأول مرة، أصبح في مستطاعهم ارتداء الملابس الخضر، وعندئذ كفوا عن تسليم رواتبهم لآبائهم، قامت الشرطة المحلية بتوزيعهم على المراكز، وجمعتهم بعد ذلك في المديرية، ثم فرقتهم مرة ثانية، وكانوا هم يتقبلون ذلك من دون احتجاج أو اعتراض ما دام المساء يجر سيقانهم إلى النوادي الليلية، إلى ذلك الصنف من المعلمين والموظفين والممرضين الذين لا يجدون غضاضة، أو حتى ظلال إهانة في تقديم أرباع العرق وملحقاتها لهؤلاء الشرطة المرحين الدمثين الذين يضفون على الموائد لمسات ساحرة من الفكاهة والهزل الجميل. وهكذا وجدوا لهم في الليالي أصدقاء ومعارف ومعجبين لديهم الاستعداد على دفع ثمن ما يشربونه. كانت دماثتهم وحسهم الفكه في الصحو لا يختلفان قدر شعرة عنهما في السكر، وكانوا يسحبون وراءهم أذيالاً طاهرة خلال تأدية واجباتهم في مراكز الشرطة. صحيح أنهم كانوا يتقبلون السجائر ووجبات الطعام، لا إنهم لم يتورطوا في رشوة من أي نوع. بدا أن تورطهم جاء من مكان آخر، مكان تآلفوا معه واعتبروه جنتهم الصغيرة التي لا ينبغي التفريط بها، فسهراتهم أخذت تطول وكميات العرق تصاعدت كثيراً، وعندئذ كثرت الغيابات والتخلف عن الواجبات، وعندئذ كثرت العقوبات أيضاً والحجز في المراكز. لم تنفع الإجراءات الصارمة ولا العقوبات في ردعهم، أو ردهم عن أبواب النوادي المفتوحة ليلاً، لأنهم هم أنفسهم لا يملكون أية

قدرة، مهما كانت ضئيلة، لمقاومة الانجذاب الهائل الذي تقوم تلك الأبواب المشرعة ببث موجاته المغناطيسية.

لجأت الشرطة إلى آخر الأساليب: النقل .. نقلتهم إلى مديرية المرور التي اكتشفت بعد مرور شهر ونصف، إنهم لا يمتلكون أية حساسية تجاه المرور وقوانينه، وفهم مدير الشرطة كلمة "حساسية" بأنها عدم احترام لقوانين المرور. طوّح بهم ثانية باتجاه شرطة النجدة، فأعادتهم شرطة النجدة قبل مضي أسبوع، لا لأنهم أخفقوا في إنجاد أحد ما، بل لأنهم قادوا طواقم السيارات إلى حيث الموائد العامرة بعد أن ركنوا السيارات في الأزقة المظلمة المجاورة للنوادي.

وحين ضرب الحظ ضربته الثانية لم يخطئ في تسديدها. اعتبر الآباء الثلاثة الذين يئسوا من استقامة أولادهم بعد أن كسروا عشرات العصي عليهم، هذه الضربة نوعاً من القدر الملغز العصي على الفهم، أو هي ربما نوع مغاير من المعجزات الخاصة بالكفرة والمارقين. مع ذلك أيقنوا بها يقيناً تاماً لا يرقى إليه الشك، ما داموا قد رأوا بأعينهم خلال لحظة، لحظة من زمن اعتقدوا إن لا قيمة له بالنسبة لأولادهم، كيف قفز هؤلاء الأولاد من خانة أفراد الشرطة الاعتياديين إلى خانة المفوضين. وما كان بوسع مدير الشرطة الذي تدلى فكه ولا حتى بوسع المسؤولين الآخرين الأقل رتبة منه فعل شيء.. فعل أي شيء على الإطلاق، لأن قرار مجلس قيادة الثورة الذي صدر في السنوات الأخير لعقد السبعينيات والخاص بترفيع الشرطة الممتازة إلى مفوضين، كان من الوضوح إلى حد عدم الحاجة إلى الشرح والتفسير.

في ليلة الولوج إلى عالم المفوضين تلك، احتفل وليد وعدنان وجعفر احتفالهم الأسطوري الذي لم تشهد مثله الماجدية في كل عهودها الماضية. صحيح أنها رأت العديد من حفلات الزواج الصاخبة التي ينتهي معظمها بمشاجرات دامية، إلا أنها ظلت حفلات زواج محدودة ومحصورة في بيت أو ساحة صغيرة أمام بيت. لكن حفلة المفوضين الثلاثة في تلك الليلة كانت من نوع آخر، نوع آخر مختلف تماماً. حتى الآباء الثلاثة لم يعتبروها تحدياً لهم ولتدينهم، بل اعتبروها تدفقاً لا يقاوم للفرح الطاغي.

عند العصر، قبل أن يسقط ظلام تلك الليلة، خرج المفوضون الثلاثة من بيوتهم، والحقيقة أنهم فروا من هزيم الطبول والزغاريد وتصفيق الأكف والغناء الحاد لمجموعات كبيرة من الفتيات الصغيرات، التقوا في ساحة الماجدية الوحيدة التي ينفتح عليها فم جسر الكحلاء. كانوا بملابسهم الخضر، غير أنها بدلات

جديـدة لايـذكرون مـن أهـداها لهـم، إذ تلقـوا عشـرات البـدلات هـدايا الأقـارب والأصدقاء والمعارف. كما تلقوا مئات من الوسائد السود الصغيرة المثبتة على كل واحدة منهن بإحكام نجمة بيضاء صغيرة.

هـرع النـاس فـي السـاحة إلـيهم وأخـذوهم فـي الأحضـان، وأوسـعوهم قـبلاً وضربات خفيفة بالأكف على أكتافهم وظهورهم، ثم هزوا أيديهم هزاً عنيفاً ليرفعوا من حرارة المصافحة. بدا لهم أن جميع قاطني الماجدية سيأتي لتقديم التهاني، عندئذ فروا من الساحة سالكين الجسر باتجاه السرية توقفوا عند جورج منصور، أطلوا عليه من باب دكانه الصغير ببدلاتهم الخضر الجديدة والنجوم البيض الصغيرة اللامعة جداً فوق وسائدها السود الملصقة في ياقات قمصانهم. ابتسم لهم جورج ابتسامة عريضة تطورت بسرعة إلى ضحكة مجلجلة:

–ليكن الله في عوننا عليكم

تلك كانت نبؤة عجيبة قالها الرجل في وقت مبكر جداً. ناولهم زجاجة كاملة من العرق، لكنهم أرسلوا إليه نظرات محملة بالعتاب.. احتج:

–هل تشربون أكثر من زجاجة؟

أجاب وليد:

–ربما يأتينا أكثر من صديق.

ناولهم زجاجة ثانية ورفض أن يأخذ منهم نقوداً. في الغسق تسللوا إلى لسان الأرض الممتد في النهر. وتحت النخلة الوسطى جلسوا متربعين على الأرض، وسرعان ما أرسل لهم أحد البيوت المقابلة بساطاً ثميناً من الصوف ودورق ماء مثلج وطبق فواكه وخمسة أقداح ظلت تلتمع حتى في الظلام لنظافتها.

قال جعفر:

–خمسة أقداح؟

أجاب عدنان:

–يعني سيقدم إلينا ضيفان.

تأخر الضيفان كثيراً، فقد اضطرا إلى عبور النهر حيث دكان جورج وعادا لاهثين بزجاجة وكيسين من اللبن الرائب واللبلبي. جاء آخرون لتقديم التهنئة، لكنهم أجلوها ريثما يعودون من دكان جورج. ثم إنضم إليهم أولاد جحيل التسعة فاكتظ لسان الأرض من بدايته حتى النهاية كان خبر هذه الحفلة قد انتشر في

شوارع الماجدية الأربعة، ثم توغل في الأزقة، وخرج من الماجدية عابراً الجسر نحو السرية والسراي والمحمودية. بدأ المهنئون يصلون بطوابير محملة بالزجاجات والأكياس، ثم توزعوا في حلقات متقاربة، محتلين كتف النهر من جسر الكحلاء وحتى لسان الأرض، ثم تجاوزوه إلى أن أوقفتهم ورشة نجرس وعصاه المشرعة في وجوههم.

وخلافاً لما هو معروف عن قاطني الماجدية في شدتهم وعدم تغاضيهم عن مثل هذه الحفلات، أغمضوا عيونهم في تلك الليلة عن أبنائهم الذين كرعوا العرق في الشارع على رؤوس الأشهاد، معتبرين ما يحدث في هذه الحفلة لا يمت بصلة إلى ما يسيء إلى الدين والأخلاق، تماماً مثلما أغمض الآباء الثلاثة عيونهم عما فعله وسيفعله أبناؤهم المفوضون الثلاثة. وهكذا سارت الحفلة في طريق محايد بين الطريق السوي والطريق الردئ.

بعد ساعتين أو ثلاثة من ازدهار الحفلة جاء فتى من شارع الملعب، بدا بسبب خجله للمفوضين الثلاثة الذين لم يروه سابقاً أشبه بفتاة بيت لم تخرج إلى سوق المحلة أبداً، بعد الكأسين الأولين اللذين كرعهما بسرعة، شجعته أصوات المحيطين بالمفوضين الثلاثة:

-علوكي.. هيا..

-هيا.. يا علوكي.

وارتفع صوت علوكي فوق الزجاجات وأطباق الفاكهة واللبن واللبلبي والباقلاء، ارتفع فوق صف المهنئين الذي أخذ تعرجه من تعرج كتف النهر ما بين جسر الكحلا وورشة نجرس المندائي، ارتفع فوق النهر مصطدماً بالجسر وعابراً إلى الضفة الأخرى، كما ارتفع فوق صف البيوت في الجانب الآخر من الشارع المواجه لصف المهنئين المتعرج. ارتفع صوته صافياً مصلصلاً، وحين يتكسر تسيل من زوايا تكسراته أحزاناً صغيرة، أحزاناً رقيقة تجعل القلوب تخفق بالأسى. خرجت النسوة من البيوت ليجلسن على امتداد الرصيف، يسمعن ويسكبن العبرات.

مضت الحفلة من دون مشاكل، من دون تلك المشاجرات التي تنتهي إليها عادة الحفلات في الماجدية في منتصف الليل وجه شرطي السيطرة في مديرية شرطة النجدة نداء إلى طواقم السيارات:

-أكثر من ألف شخص يحتلون ساحل نهر الكحلاء من الجسر إلى مخزن الأسماك الكبير.. يحتلون الساحل ويحدثون ضجيجاً.

اتجهت سيارات شرطة النجدة من مرابضها في مختلف أنحاء مدينة العمارة، اتجهت بسرعة مطلقة صافراتها، لتعبر الجسر وتتوزع في مواجهة كتف النهر، نزلوا من سياراتهم والأسلحة في أيديهم، وتقدموا بحذر طالبين من الجالسين حول الزجاجات والكؤوس عدم الأتيان بأية حركة أياً كان اتجاهها. واحتج صوت:

–إذن، كيف نشرب؟

حين تقدموا أكثر وأسلحتهم مشرعة رأوا المفوضين الثلاثة في الوسط، رأوا النجمات البيض الصغيرة تلتمع في الظلام فوق الزجاجات والكؤوس، وعرف مفوضو سيارات النجدة مفوضي الحفلة، وحل دور الأحضان والقبل، ثم أجابوا شرطي السيطرة الذي أكله القلق:

–ليس هناك خطر.. إنها حفلة تخص الشرطة.

لم ترجع سيارات النجدة لا إلى مرابضها ولا إلى مديرية النجدة إلا في صباح اليوم الثاني. مضت الحفلة هادئة مرحة طوال الليل إلا من صوت علوكي الذي يرتفع بين فترة وأخرى ليزيل النعاس من عيون المحتفلين التي بدأت تأخذ بالانغلاق. ظل نجرس منذ ما بعد الثالثة من بعد منتصف الليل، ينتشل بقاربه السكارى الساقطين من فوق اللسان ومن فوق الجرف العالي إلى النهر.. يلتقطهم خلال ما كان يواصل شتمهم وشتم الآخرين الذين ما زالوا جالسين أمام كؤوسهم.

لم يتحدث أحد عن الحفلة في اليوم التالي، وكأن لا أحد قد جلس مساء أمس على كتف النهر المتعرج، كأن أحداً لم يشتر أية زجاجة مهما كانت عبوتها من جورج منصور، كأن علوكي لم يطلق صوته العذب الذي أخطأ الطريق فترك الآذان ودخل القلوب، وحتى نجرس كأنه لم يستمر حتى غبش الفجر في التقاط السكارى الذين سقطوا في النهر. في الصباح ذهب المفوضون الثلاثة إلى مديرية الشرطة، وعند الظهر صدرت أوامر تعيين جديدة لهم للالتحاق بمراكز شرطة جديدة، ومر اليوم بسلام مثلما مرت بعده أيام عديدة، عديدة جداً إلى حد أنهم، وحتى الناس أيضاً، نسوا إنهم كانوا من الشرطة الأفراد.

ومثلما تصرفوا عندما كانوا شرطة من دون نجمات بيض صغيرة في ياقاتهم، تصرفوا نفس التصرف وهم يحملون تلك النجمات، ظلوا عصبة مرحة طيبة وذات سلوك خالٍ من الغطرسة مالوا في تنفيذ واجباتهم إلى الجانب اللين من القانون، وشهدت المراكز التي عملوا فيها خروج المتخاصمين والمتشاجرين الذين تسيل دماؤهم متصالحين وأصدقاء. لكنهم اكتشفوا أمراً لم يعيروه أهمية في بادئ الأمر، وهو أن النجمات البيض الصغيرة المثبتة في ياقاتهم قد دفعتهم إلى الأعلى، إلى

فئات من الناس ما كان في استطاعتهم الاقتراب منهم سابقاً: القضاة ورؤساء الدوائر والمدراء العامون ومجموعة كبيرة من التجار الذين كانوا ينظرون إليهم من بعيد فقط. كان طبعهم المرح وميلهم إلى الفكاهة وإنجذابهم السريع نحو اللذة الحسية القادرة على جعلهم يحلقون على عجل في فضاءات سرعان ما تختفي في اليوم الثاني، تاركة بدلها صداعاً يستمر حتى الظهيرة، هذا الطبع والميل والانجذاب والنجمات البيض الصغيرة في الياقات. جعلتهم يمرقون بلا إبطاء من خلال أبواب النوادي الليلية الأكثر رقياً من تلك التي ارتادوها حين كانوا شرطة أنفاراً، فأمضوا أماسيهم الجديدة متنقلين بين نوادي الأطباء والمهندسين والعاملين في حقول النفط. لم يتوقفوا عن اندفاعهم اليومي نحو الأخيلة الشاحبة المنبثقة من أبخرة العرق في رؤوسهم. في الوقت نفسه لم يتوقف المسؤولون في مديرية شرطة المحافظة عن توجيه العقوبات التأديبية إليهم والتي بدت لهم بعد فترة من الزمن غير ذات نفع، فلجأوا إلى التطويح بهم خارج مركز المحافظة. نقلوا وليد إلى مركز شرطة قضاء علي الغربي، وعدنان إلى مركز ناحية العزيز، وجعفر إلى مركز ناحية السلام. لم ينظروا إلى هذه الأوامر بكآبة وضيق كما توقع المسؤولون، وإنما جمعوا بسرعة ما يحتاجون إليه من ملابس وأحذية حشروها في حقائبهم الصغيرة، وسافروا إلى الأماكن التي اعتبرها الآخرون المنافي البائسة التي كان على المفوضين الجدد أن لا يصلوا إليها بهذه السرعة.

تسلموا وظائفهم في تلك المدن الصغيرة النائية الغارقة في أعماق ريف ذي تقاليد قاسية وغامضة ومعقدة، من مفوضين أكبر سناً منهم بكثير، مفوضين ذوي رؤوس لم يبق فيها شعر أسود. شعروا بالأسى لهؤلاء المفوضين الشبان، لكنهم لم يحذروهم من شيء أو شخص على الإطلاق، لأنهم اقتنعوا أو أيقنوا أن لا فائدة من تحذير ثلاثة فتيان يبدو التهور واضحاً في عيونهم. غير أن هؤلاء المتهورين اكتشفوا أوكار فساد في مدينتين ومجموعة من سراق أراضي الدولة في المدينة الثالثة. المفوضان وليد وعدنان، على الرغم من وجودهما على جناحي العمارة البعيدن، عثرا في اليومين الأولين على مخيمين للغجر، أحدهما في الأرض العراء المشابهة للصحراء والواقعة بين علي الغربي وسلسلة جبال حمرين.. هكذا وقف المفوض وليد بساقين متباعدين ووراءه سيارة الشرطة أمام مخيم الغجر الذين سقطوا أمام ساقية مرتجفين ومرتعبين من القانون. والمفوض عدنان توغل في نهران عمر، ليصطدم بمخيم غجر مخرساً آلاتهم الموسيقية. لم يكن في السلام أو أريافها مخيم غجر يمكن للمفوض جعفر أن يغزوه، غير أنه غاص فيما وراء

أنهار الضلع والخمس والثرثار، ليضع يد القانون الصارمة على الفلاحين الذين استغلوا أراضي الدولة الخارجة عن أعماق الأهوار خلال الشهور الثلاثة التي أمضوها في تلك المدن الريفية جعلوا جدارتهم ونزاهتهم تسير في الشوارع والأسواق، فوضعوا كل الريفيين المشهورين بإثارة المشاكل في الحبس.

في تلك الشهور الثلاثة تجمعت غيوم المشاكل أكثر مما تجمعت خلال السنوات العشر الماضية. اضطرت مديرية الشرطة أن تُعيد المفوضين الثلاثة إلى مركز المحافظة، وأن تقوم بتهجير مخيمي الغجر إلى خارج حدود المحافظة لم يرجعوا إلى المدينة بعافية أفضل من العافية التي ذهبوا فيها على الرغم من هواء الريف النقي وطعامه الدسم الطازج.. عادوا إلى مراكزهم القديمة وواجباتهم التي لم يجدوا فيها ما يثير الحماسة، وعادوا أيضاً إلى نواديهم الليلية، وكانت أيديهم الحاملة للكؤوس كثيراً ما تتوقف في منتصف المسافة إلى أفواههم، مطلقين الحسرات على ضياع جناتهم الصغيرة في تلك المدن الريفية النائية، غير أن جلساءهم، غير أن أصدقاءهم، غير أن الناس في طول المدينة وعرضها، ما زالوا يكنون لهم الود والحب والاحترام، فهم على الرغم من خسارتهم لتلك الجنان ظلوا محتفظين بطيبتهم وبساطتهم ومرحهم وحبهم لفعل الخير، ولقد وصفهم أحد الرجال في نادي المهندسين بعد خروجهم في آخر الليل:

–هؤلاء الفتيان لا يعرفون قيمة النجمات البيض على الرغم من إنهم ولدوا وعاشوا في الماجدية.

ثم جاء مَنْ جعلهم يعرفون تلك القيمة، ولم يكونوا راغبين في تلك المعرفة، لكنهم وقعوا تحت طائلة رغبة أخرى، رغبة لا تخصهم بل تخص ذلك الرجل المحتال الذي سخّر طيبتهم وزهدهم بالمنافع الكبيرة، ليملئ كيس نقوده. جرهم إلى ساحته بعد سلسلة من الدعوات في النوادي المدفوعة سلفاً، وطرح مشروعه التجاري جزءاً جزءاً، ونجح في إثارة فضولهم بطريقة غريبة في بطئها وكأنه يسكب أفكاره من خلال قطارة. بعد أسبوع تحرك المفوضون الثلاثة معولين على نجماتهم البيض الصغيرة في فتح أبواب المسؤولين الكبار الذين نظروا إلى ظلهم بدهشة، وواجهوا السؤال نفسه من كل مسؤول:

–أنتم؟.. كيف يمكن لكم فتح وكالة مشروبات غازية؟؟.. أنسيتم أنكم موظفون في الدولة؟ وفي حضرة كل مسؤول، وحسب الخطة التي وضعها ذلك الرجل، يردون:

–نحن؟.. إنها لرجل مسكين اسمه ناصر علاوي.

وحصل ذلك المسكين الذي يحمل اسم ناصر علاوي على حق فتح الوكالة، وبدأت الشاحنات تأتي من بغداد والبصرة لتملئ مخازن الوكالة، وأخذت شاحنات أصغر تخرج من الوكالة لتوزع صناديق المشروبات الغازية على الأقضية والنواحي، ودارت سيارات أخرى على مقاهي وسينمات العمارة، وامتلأت جيوب المسكين بالمال. في نهاية الشهر الأول عرج المفوضون الثلاثة لأخذ حصتهم.

قال الرجل بهدوء:

.. حصة؟ أية حصة تقصدون؟

أجاب وليد:

–حصتنا.. ألسنا شركاؤك في الوكالة؟

فجأة، بدأ الرجل يتحدث بما يشبه الصراخ:

–شركائي؟.. في ماذا؟

بدا المفوضون الثلاثة في ذهولهم وسط الناس الذين تجمهروا حولهم مثل أرانب سقطت في الماء. فرت الكلمات منهم فظلوا واجمين، وكان هذا ما يحتاجه الرجل الذي لم يخفض نبرة صوته:

–إذن، أنتم شركائي؟.. اخرجوا ليس لي، بل للناس ما يثبت كلامكم.. أليس بين الشركاء عقود قانونية؟.. أين عقودكم؟

ثم واصل حديثه بعد فترة من النظر إلى الناس:

–سأقبل حتى بأوراق ليست مصدقة من جهة رسمية.. ليس لديكم حتى هذه؟

التفت إلى المتجمهرين وقال:

–أرأيتم كيف تكون السرقة؟.. وكالة رسمية باسمي صادرة من الدولة، ثم يأتيني هؤلاء مدعين أنهم شركائي.. ألأنهم مفوضو شرطة..

وترك كلماته من دون أن يكملها، لكن المتجمهرين فهموا بلاغتها. في ذلك المساء تجمعوا تحت النخلة الوسطى فوق لسان الأرض. لم تفلح الكؤوس المترعة في طرد الحزن من قلوبهم.. قال وليد:

–كيف حدث هذا؟؟.. ناصر علاوي يخدعنا؟

أجاب جعفر:

–لأنه لعب معنا ضمن قواعد القانون.

تساءل عدنان:

–قواعد القانون؟.. نحن رجال القانون ويبطش بنا رجل سوق؟

قال وليد والكأس ما زالت في يده من دون أن يقربها من فمه:

–جعفر على حق.. انظر كيف أتقن لعبه معنا.. إجازة الوكالة باسمه لأنه لا يحق لنا درج أسمائنا معه فنحن موظفو دولة، ولم نسجل عقداً معه عند كاتب العدل لأن مثل هذا العقد مبني على باطل، والباطل يأتي من كوننا موظفي دولة.. أليست هذه حججه التي أقنعنا بها، فعلقنا ثلاثتنا نحن المفوضين بخيط الثقة به؟

قال عدنان معلقاً:

–وقطع هذا الخيط في أول شهر.

قال جعفر:

–لو كنا أخذنا عليه كمبيالة بمبلغ كبير.

قال وليد:

–وماذا كنا سنفعل بالكمبيالة؟.. نذهب بها إلى المحكمة؟.. ستقوم المحكمة بتقسيطها إلى مبالغ هزيلة شهرياً.

رد عدنان:

–في الأقل كنا قد أخذنا منه شيئاً.

قال جعفر:

–درس ناصر علاوي أكثر نفعاً من كل دروس مدرسة الشرطة.

تساءل وليد:

–ماذا تقول؟

أجابه جعفر:

أرأيت كيف نال رجل سوق نصف متعلم من ثلاثة مفوضين؟.. لعب في ساحة القانون بمهارة فتطوحنا نحن الثلاثة خارج هذه الساحة.

عمّروا كؤوسهم ثانية ودقوها ببعضها، وقبل أن يشربوها كانت أمور كثيرة قد غيرت دوافعها في دواخلهم.

←←

- 4 -

عندما تلوى شيء ما يشبه خيط البرق في قلب ملوكي، لم يشعر بقوة غامضة لا سبيل إلى كبحها، أو في الأقل التحكم في زمانها، تغوص في أعماقه أو تطفو إلى السطح، إلى الخارج حاملة إياه من ركن الزقاق حيث التقته ساهرة وسلمت عليه إلى ما فوق البيوت، إلى ما فوق أكواخ الصيادين ومخزن الأسماك الكبيرة، إلى ما فوق ورشة المندائي ونهر الكحلاء، ثم عائدة به إلى ما بين جذوع النخيل، ومارة به من جانب الأعذاق المتدلية حيث ما يزال التمر في طور الجمري.. لم يشعر بانعدام مثل سائر العشاق الذين يهاجمهم الحب أول مرة، بل شعر بقوة خارجية تشبه مطرقة هائلة هوت على رأسه، مطرقة دقته في ركن الزقاق كما لو أنه كان مسماراً بطول متر ونصف– هو ملوكي نفسه الجالس الآن على طرف لسان الأرض، مواجهاً النهر ومولياً ظهره للماجدية، لم يرد أن يفكر في الأمر، في ذلك الذي جرى له عند ركن الزقاق عندما التقته ساهرة وسلمت عليه.. لم يرد أن يفكر لأنه متأكد إنه تلقى ضربة حقيقية من تلك المطرقة، تماماً مثلما هو متأكد الآن من أن قبضة يده اليمنى تمسك بقوة كف يده اليسرى. بدا له وهو تحت ضغط هذا اليقين، أن رأسه سيتناثر أجزاءً صغيرة أمامه وخلفه بسبب تلك الضربة. ثم أخذت الحرارة تشع من جسمه كما لو كان فرناً على وشك الانفجار هب من جلسته مثل نابض وركض باتجاه ورشة المندائي. تناول مجذافاً مستنداً إلى سقيفة الورشة بشكل عمودي، واندفع هائجاً وماراً بنجرس الواقف إلى جانب زورق مقلوب من دون أن يحييه أو يتحدث معه. وبنفس هياجه فك أحد زوارق نجرس من مربطه، ثم دفعه بقوة في الماء وامتطى مؤخرته والمجذاف في يده. تمايل الزورق بعنف ناثراً الماء بعيداً عنه إلى الجانبين، غير أن ملوكي أعاد إليه توازنه بساقيه جلس في مؤخرته وبدأ تجذيفه موجهاً القارب إلى منتصف النهر، ثم عدّل مقدمته في مواجهة التيار، وأخذ يجذف بسرعة وبقوة، وظل لفترة طويلة ثابتاً في مكانه. كان يتقدم بزورقه فوق صفائح المياه المندفعة نحوه مترين

أو ثلاثة، لكن تزاحم وتدافع صفائح الماء البيض اللامعة وكأنها مرايا لينة لكنها ذات عزم وقوة تعيد الزورق إلى الوراء إلى مكانه الذي تقدم منه، كان نجرس يراقب من مكانه ما يقوم به ملوكي، وأيقن بعد أقل من عشرة دقائق من المراقبة، أن هذا الفتى قد أصابه الخبل، وفكر: كيف يقوم بذلك وهو الذي يعرف كل شيء عن النهر وعن الزوارق، يصعد التيار في منتصف النهر؟.. رمى مطرقته وإزميله وتقدم نحو الجرف، وصاح بأعلى صوته:

-أيها المجنون.. ما الذي تقوم به؟

لم يتوقف ملوكي عن التجذيف. بدا وكأنه يريد أن يستنفد كل قوته بتلك الضربات السريعة التي تثقب سطح الماء. انتبهت النسوة اللواتي يغسلن الملابس والأواني على الجرف، فتركن ما بأيديهن وتابعن ملوكي وزورقه. انضم إلى النسوة رجال وأطفال وبدأ الكل يراقب بدهشةٍ صامتة. لم تضعف حركات مجذافه وإنما ازدادت سرعة وقوة كما لو أن ذراعيه تسري فيهما قوة تستمدانها من خارج الجسد الذي تنتميان إليه. كان ملوكي في تلك اللحظات المتوترة والمشحونة بسخطه، العاجز هو نفسه عن السيطرة عليه، يرى أن زورقه يتقدم بإطراء نحو جسر الكحلاء، نحو الجسر وضد التيار. لكن ما يجري في وسط النهر وأمام أنظار شهود الشاطئ مختلف تماماً وغير واقعي تماماً، فالزورق كان متوقفاً في مكانه وكأن قوة غير مرئية ثبتته في وجه التيار.

ومن دون سابق إنذار، ضاعف التيار من قوته وسرعة جريانه، وفي الحقيقة أن ملوكي فقد قوته وعزمه دفعة واحدة مثل انطفاء مصباح متوهج فجأة. رأى شهود الشاطئ وكذلك نجرس ميلان الزورق على جانبه، وهكذا اكتسحه التيار مائلاً إلى جانبه الأيسر، كما رأوا انهيار ملوكي ثم سقوطه في قاع الزورق. أخذ التيار يتلاعب بالزورق فاندفع إلى الأمام دائراً حول نفسه باتجاه سدة المشروع. أيقن الرجال والنساء أن ملوكي والزورق سيتحطمان على ركائز السدة، فارتفع الضجيج فوق رؤوسهم، ثم تحول إلى وجوم ثقيل حين رأى ذلك الجمع من الرجال والنساء والأطفال نجرس وهو يرمي نفسه بملابسه في النهر ويسبح نحو الزورق الدائر حول نفسه. وصل إليه بسرعة وتشبث بأحد جانبيه بقوة ثم سحب نفسه إلى الأعلى خارجاً من الماء. حين جلس في الزورق لاهثاً ومبللاً بالكامل، لم يوبخ ملوكي المنبطح على وجهه في قاع الزورق. كانت إحدى يديه ما زالت ممسكة بالمجذاف بقوة. خلص نجرس المجذاف من

يده، ووجه الزورق من مقدمته نحو الشاطئ، ثم قاده بموازاة الجرف عائداً به إلى حيث الورشة.

حمل ملوكي من قاع الزورق بين يديه ووضعه فوق حصير القصب أمام سقيفة الورشة. خلال الخطوات العشر أو أكثر قليلاً التي قطعها بين الزورق وحصير القصب، لم يفكر نجرس بتقريع ملوكي على ما قام به، بل فكر بخفة وزن هذا الفتى.. تساءل: ألا يأكل هذا الجرو الأسود؟..

جلس على الحصير إلى جانب ملوكي الممدد عليه – سأله:

–ما الأمر؟

نشج ملوكي باكياً، وتحرك مديراً ظهره للمندائي.. عاد يسأله:

–هل عملك في تصليح السيارات جعلك تنسى النهر والقوارب؟.. هل أصبحت حماراً إلى الحد الذي تصعد فيه نهراً من وسطه؟

وواصل كلامه وهو ينظر إلى النهر:

–ما هو السبب الذي جعلك تفعل ذلك؟.. إلى أين كنت تريد الذهاب؟

لم يحصل من ملوكي على أي جواب. فكر: لا بد أن هذا الفتى أوقع نفسه في ورطة أو مشكلة كبيرة. تذكر أن يستبدل ثيابه المبلولة، فنهض واتجه إلى ما وراء مخزن الأسماك تاركاً ملوكي يتقلب بين ألسنة نيران يجهلها، وما كان سيصدقها أبداً لو تسنى له معرفتها.

كان ضوء الشفق ما يزال يضيء المدينة حين عاد نجرس إلى الورشة، كان قد نسي ملوكي المدد على حصير القصب، ولم يتذكره إلا حين رآه مرة ثانية. ظن في أول وهلة أنه فارق الحياة، لكن شخير ملوكي الخافت أبعد هذا الظن.. تطلع المندائي إلى السماء، إلى بقايا النهار وضوء الشفق الذي ارتفع عن الأرض وتعلق بأطراف السماء العليا البعيدة وعرف أن الغروب سيحط على المدينة قريباً، وقريباً جداً فكر: أن عفاريت الجن سينطلقون مع الغروب، ولا يصح لأحد أن ينام إلى جوار ساحل نهر، من المؤكد أن أحد العفاريت سيتلبس ملوكي النائم. ولكي يحول دون وقوع هذا الأمر، اتجه إلى النهر وعاد بجردل ماء سكبه على ملوكي من رأسه إلى قدميه. لم ينهض، يعني أنه لم يهب من نومه، بل تململ على الحصير، فاضطر نجرس أن يسكب عليه جردلاً آخر. جلس ملوكي وهو غارق بعرقه وبماء الجردلين. نظر إلى نجرس بسحنة منقلبة.. قال:

–لماذا؟

–هل أتركك نائماً إلى أن يسقط عليك الغروب؟

قام ملوكي وسار باتجاه النهر بساقين مهتزين. تجاوز الجرف حتى وصل الماء إلى منتصف صدره، فغطس عدة مرات في الماء الضحضاح لجرف النهر، وكان رأسه فقط فوق سطح الماء، وسمح للماء أن يدخل في فمه وعينيه وأذنيه.

جاءه صوت نجرس من فوق أحد القوارب المقلوبة:

–اخرج، فالظلام سيحط على الدنيا.

خرج من النهر وجلس إلى جانب نجرس. بحث في جيوبه عن علبة سجائره، غير أنه ألقاها في النهر:

–ألديك سيجارة يا نجرس؟

ألم تتذكر سجائرك فتخرجها من جيبك قبل أن تغطس في النهر؟

دخن سيجارة من علبة نجرس، وطلب سيجارة ثانية لأن الماء الذي كان يسيل من شعره قد بلل الأولى. سقط ظلام أول المساء سريعاً، وبدوا لمن يراهما من بعيد شبحين غامضين يطلقان الدخان، الذي ما زال محتفظاً ببياضه، من مناخرهما وفميهما.

فجأة وبدون مقدمات، سأل ملوكي

–ماذا تفعل يا نجرس لو شعرت أن امرأة.. فتاة ضربتك بطابوقة على قمة رأسك؟

أخرج نجرس الدخان المحصور في صدره خيطاً طويلاً من فمه، وسأل هو الآخر:

–هل ضربتك امرأة بطابوقة يا ملوكي؟

–قلت لو شعرت.

لكن المندائي تذكر صراع ملوكي ضد التيار، تذكر نشيجه على حصير القصب.. التفت إلى ملوكي وأمسكه من كتفيه وأداره نحوه:

. أصحيح أن امرأة ضربتك بطابوقة على رأسك؟

انتفض ملوكي مخلصاً نفسه من قبضتي نجرس ثم نهض من مكانه وابتعد عن القارب المقلوب. وقف والتفت ناحية نجرس... صاح:

. لماذا كلما أسألك سؤالاً تردّه إليّ بسؤال آخر؟..

ثم أعطاه ظهره ليختفي وراء مخزن الأسماك بملابس نصف جافة. لم يظهر

ملوكي لا في الجوار ولا في شوارع الماجدية إلا بعد التاسعة مساءً. أحدث ظهوره بلبلة والكثير من القيل والقال بين ثلة المفوضين الثلاثة التي بدأت حفلتها الليلية تحت النخلة في وسط لسان الأرض. مر بهم ببدلته الرمادية المزرقة المليئة بالأزرار من الأمام وبالكلمات المكتوبة بحروف إنجليزية في الصدر والظهر، كانت بدلة من قطعة واحدة، لا يلبسها إلا في المناسبات المهمة، وكان قد سرقها من العمال اليوغسلاف خلال بنائهم جسر مغربة. كانت واسعة جداً قياساً لجسمه الضئيل، ولم يأخذها لخياط ليجعلها على مقاسه. لذلك يبدو حين يلبسها وكأنه يسبح في داخلها، وهكذا مر سابحاً بين الأزرار والكلمات الإنجليزية بالمفوضين الثلاثة، وبعلوكي وعلي بن وحيد بائع الأقمشة في الظاهر وعتاد البنادق والمسدسات وقنابل أعماق المياه في الباطن، وبعلي بن موسى بائع النفط بعربة كبيرة يجرها حصان... مر بهم حاملاً بإحدى يديه علبة كيكوز معدنية مليئة بماء مثلج، من دون أن يحييهم، وحتى من دون أن يلقي عليهم نظرة. شعر الجميع بالإهانة، إهانة لجلستهم التي يجب أن يحترمها الآخرون، حتى وإن كانوا يرتدون بدلات عمل أجنبية.

غير انهم ابتلعوا الإهانة، وتابعوا خطوات ملوكي التي جعلتها بدلته الفضفاضة تتجه إلى الجانبين بدلاً من الأمام. تابعوا ملوكي حين وقف تحت النخلة في نهاية لسان الأرض، تابعوه بفضول لم يشعروا به سابقاً وهو يضع علبة الكيكوز المعدنية على الأرض برقة، ثم أخرج من جيب جانبي قدح زجاج وكيس نايلون مليء بمكعبات الثلج، ومن جيب آخر أخرج ثلاثة أكياس من النايلون أيضاً، لم يميزوا محتوياتها في الظلمة الخفيفة، لكنهم ميزوا زجاجة العرق الكاملة التي أخرجها من جيب جانبي آخر.

. زجاجة كاملة؟..

. هذا يعني أن ملوكي قرر قتل أحدهم...

أسند حدبته الضائعة وراء قماش البدلة إلى جذع النخلة، يعني أنه أعطاهم ظهره.بدا لهم، خاصة المفوضين الثلاثة، أن ملوكي ملأ الليل بالإهانات الموجهة إليهم. إلا أن قلوبهم التي تلين خلال ما يشربون العرق، تسامحت مع تلك الإهانات، ثم سمت . تلك القلوب . في تسامحها حين تذكروا أن ملوكي لم يسبق له أن شرب العرق أبداً. دار همس بينهم، همس ظاهره وباطنه استند على حب الخير لملوكي.

. إذن، هو في ورطة؟

. مَنْ؟... ملوكي؟.. إنه قادر على إيقاع نصف قاطني الماجدية في مليون ورطة.

. أنتركه هكذا؟..

. نعم... إذا كان في ورطة فسيأتي إلينا..

لكن علوكي ذو الصوت الجميل، اقترح أن يذهب إليه، أن يعرف أين حشر ملوكي رأسه.

غير أن ملوكي زمجر في وجه علوكي حالما جلس إلى جانبه. زمجر وكشر مثل حيوان ضار، فتراجع علوكي إلى مجلسه السابق. قال:

. كاد ينهشني..

بتلك الزمجرة، وبتلك التكشيرة، حاول ملوكي أن يعبر لعلوكي ذي الصوت الجميل عن حاجته للانفراد بنفسه. حاول أن يفكر وهو وحيد مع نفسه بعيداً عن الآخرين. فشل عن استعادة هدوئه بعد تلك الزمجرة، وشعر أنه بدأ يغضب، وإن غضبه أخذ يتفاقم، وهكذا لجأ إلى قدحه المترع حتى حافته. رفع قدحه من دون ذلك التردد أو الوجل الذي يشعر به مَنْ يشرب أول مرة. رفع قدحه وشربه حتى آخر قطرة، فشبت النار من بلعومه حتى قاع معدته، وابتلع بسرعة نصف كيس اللبلبي وربع كيس اللبن الرائب. ملأت الدموع عينيه، وارتفع ما يشبه جيشاً من النمل المسرع من بطنه إلى رأسه. بدأ اللعاب يتدفق من فمه كنذير للغثيان، غير أنه لم ينشغل بما طرأ على بطنه ورأسه وفمه. أشعل سيجارة توهجت جمرتها في الظلمة تحت النخلة السامقة، وحين أراد أن يريح رأسه على جذعها اضطر أن يزحلق عجيزته قليلاً إلى الأمام ليبعد حدبته عن ذلك الجذع. وبدأ يفكر: لماذا تلك الضربة على رأسي؟.. لماذا ارتعشت حين رأيتها؟... أهي جميلة؟.. هي حورية.. هي آية من آيات الجمال... عند هذا الحد أغمض عينيه وارتبك تفكيره.. حاول أن يعاود التفكير، غير أن جمال ساهرة سد جميع المنافذ أمام فكره.

حاول ذلك ثانية لكنه فشل. اعتدل في جلسته وملأ قدحاً آخر، قدحاً مترعاً فيه الكثير من العرق والقليل من الماء والثلج، وكرعه مثلما كرع القدح الأول، فتطايرت شرارات صغيرة من النار مع دموعه، ونفث جسمه أبخرة ساخنة من مساماته. فتح جميع أزرار البدلة الأمامية، وسال عرق غزير من وجهه فمسحه بأردانه. حين هدأت معدته التي أحس بها تغلي مثل قدر على النار، حين أغمض عينيه عن المصابيح المتوهجة في الجانب الآخر من النهر والمتراقصة من دون

انسجام، حاول أن يفكر مرة أخرى، لكن الدوائر، الكرات الصغيرة الحمر والزرق والصفر المتحركة تحت جفنيه دونما توقف، جعلته يحس أنه يعوم في دوامات ملونة.

ثم اختفى كل شيء.. اختفى جيش النمل واختفت الدوائر الملونة، واختفت أيضاً الأبخرة الساخنة المتدفقة من مسامات جسده، الآن، هو يجلس على وسادة لينة لا على أرض خشنة صلبة، والنهر كف عن جريانه السريع وعاد هادئاً مثلما كان، وتوقفت مصابيح الجانب الآخر من النهر عن رقصها العابث. الآن، صفا فكره الذي عصفت به البلبلة والإرباك قبل قليل، ثم إنه يشعر الآن بقوة كبيرة، قوة لم يعهدها سابقاً، تستقر في جسده المنهك المحطم.

حاول وهو يمر بهذا الصفاء النادر لرأسه أن يفكر ولو للمرة الأخيرة، أن يصل إلى حقيقة ماكان سيصل لولا هذا الصفاء الذي لن يحصل عليه بعد هذه الليلة أبداً. وماكان أحد سيصدق ماتوصل إليه لو أنه قصه عليه. لكن ملوكي . وهذا من سوء حظه . فتح الباب الذي سيطل على تعاسته المزرية طوال السنتين التاليتين. خلال ماكان يكرع الكأس تلو الكأس، كان يفكر بنفس سرعة شربه. حار في البداية أمام خوفه خلال السنوات الأثنتي عشرة الماضية، تلك السنوات التي انقضت من دون أن يرى ساهرة، من دون أن يمر من أمام باب بيتها، فهذه الفتاة خلفت في قلبه الخوف بعد أن رمته من فوق كتف النهر إلى الصخور الخرسانية.

لم يكن ذلك الخوف من النوع الذي يمر بالإنسان تاركاً بصمة سرعان ما يمحوها تعاقب الزمان، بل هو مزق بسالة قلبه الجريء وهو في تلك السن الصغيرة. وهكذا تحولت ساهرة من كائن صغير يمكن اللعب معه بسعادة إلى مصدر فزع دائم. إذن، ماذا حدث اليوم؟.. ماذا حدث بحيث أنني أحب النظر إليها؟... أحب أن أراها في كل وقت، في كل لحظة... هل أحببتها؟..

فزع من تساؤله الأخير، وازداد فزعه حين تذكر إنها هي مَنْ صنع له حدبته.. كرع كأسين سريعتين، فطارت أشجار الجانب الآخر من النهر نحو السماء، وهدر النهر مرتفعاً نحوه.

تناول زجاجة العرق والكأس الفارغة كلاً بيد، ونهض واقفاً وهو يتمايل أماماً وخلفاً. استدار بصعوبة إلى الخلف، ثم سار بساقين مهتزتين، ومر بالمفوضين الثلاثة ورفاقهم. من دون أن يراهم، لأنه كان يسير مغمض العينين. سار كما لو أن قدميه اللتين تعرفان الطريق يقودهما شخص آخر غيره، وغاب في الظلمة وراء

مخزن الأسماك بعيداً عن بيته.

استيقظ في عصر اليوم الثاني والدوار يطن في رأسه. استيقظ من دون أن ينهض من استلقائه، يعني أنه فتح عينيه فقط، فطالعته أضلاع زورق مقلوب على جانبه. وجد صعوبة في تمرير لسانه على شفتيه المتيبستين، وكان فمه جافاً. تذكر زجاجته وكأسه، فأدار رأسه إلى الجانب الآخر، فواجهه سطح أسود لزروق مقلوب بطناً إلى ظهر. انقلب على جانبه لينهض، وحين وقف على ساقيه جفل نجرس الجالس مقرفصاً أمام قارب مقلوب آخر وهو يحشر فتائل القطن بين شقوق ألواحه.

. ماذا تفعل؟..

. كنت نائماً..

. منذ متى؟..

. منذ ليلة أمس..

. بدأت تشرب العرق أيها الأحدب الملعون؟..

خرج من بين الزورقين واتجه إلى الساحل. نزع بدلته الفضفاضة ونفضها عدة مرات ثم طواها بعناية وحشرها في مقدمة زورق مربوط إلى الضفة. بدا لنجرس وهو في لباسه الداخلي فقط وحدبته المكورة في أعلى ظهره وبشرته السوداء، بدا للمندائي وكأنه قادم من مكان يعج بالجن والشياطين. غطس في النهر فشعر ببرودة الماء تلسعه غير أن الطنين والدوار ازدادا في رأسه، فأغطسه عدة مرات وبسرعة تحت الماء: خلال ماكان واقفاً على رمال قاع النهر المتماسكة القوية، خلال ماكان التيار الضعيف لمياه الجرف المار بصدره وبطنه ومابين ساقيه، أحس أن المياه الباردة لم تنعش جسمه الذي أذبلته سكرة ليلة أمس، على العكس، كان يحس أنه بدأ يذوب بالتدريج كما لو أن تيار الماء المار به، يمتص قوته شيئاً فشيئاً.

جاءه صوت نجرس من فوق مؤخرة القارب التي وضع فيها بدلته وحذاءه:

. حدث هذا اليوم أمر سيغير الكثير من الأمور.

رفع رأسه إليه فرأى سيجارة تشتعل بين أصابعه. أضاف نجرس:

. صادر المفوضون الثلاثة سيارة سمك تعود إلى وهابي.

. سيأكلهم وهابي.

. هذا ما سمعته من كل شخص صادفته اليوم في الماجدية.

ـ وقبل أن يبدأ بلوكهم سيجعل النجمات البيض الصغيرة تطير من فوق ياقاتهم.

. هذا ما سمعته أيضاً.

فجأة، هبطت غيمة سوداء صغيرة على عيني ملوكي. تذكر المفوض عدنان شقيق ساهرة. كان قد شعر أن خيطاً جديداً، خيطاً حساساً يتعلق بحياته وبقلبه قد ربطه به منذ هوت تلك المطرقة على رأسه أمس، وآمن في لحظة خوف وسخط، إن وهابي ملك الصفاطين الذي لا ينازع لديه مقدرة لا حدود لها في قطع هذا الخيط الحيوي بالنسبة إليه في الأقل. تقدم نحو المندائي وطلب منه سيجارة فقد تحول الطنين في رأسه إلى صدام. عاد إلى حيث كان قبل قليل مبقياً رأسه ويده اليمنى التي تحمل السيجارة فوق الماء.

. عاد المندائي يقول:

. وبعد الساعة الواحدة ظهراً وضعوا وهابي في الحبس.

تدفق الماء في عيني ملوكي المفتوحتين الشاخصتين على المندائي، رأى المندائي من وراء غشاء الماء يتلوى مثل ورقة رقيقة يموجّها الماء بهدوء. رمى سيجارته وفرك عينيه ليخرج منهما الماء. تساءل:

. وضعوا وهابي في الحبس؟.. صادروا أسماكه ثم وضعوه في الحبس؟.. لن يرضى وهابي إلا بضرب الماجدية بالمدافع..

ومثلما قال ملوكي كان قاطنوا الماجدية يعتقدون. لكن المفوضين الثلاثة منذ الصباح، وبالضبط منذ أمسكوا سيارة الأسماك المهربة في نهر سعد، وأعادوها ثمانية وعشرين كيلو متراً إلى الوراء، إلى حيث مركز شرطة الماجدية، مع سائقها ووكيل أعمال وهابي، حققوا مع السائق ومع الوكيل موقعين بهما في شبكة محيرة ومبلبلة من الأسئلة التي ألهمها إياهم القانون، جعلوهما يعترفان بكل التفاصيل بعد نصف ساعة من التحقيق، ويعترفان بأشياء أخرى تخص المالك الحقيقي للأسماك بعد أن وعدوهما بإطلاق سراحهما. وضعوا أمام حاكم التحقيق محضري التحقيق الخاليين من أي ثغرة يمكن أن يتسلل منها الدفاع. أصاب حاكم التحقيق الذهول وهو يقرأ المحضرين من البداية إلى النهاية، وماكان قد علق عليه الآمال، يعني تلك الثغرات العديدة والكبيرة التي يضعها مفوضو المراكز في محاضر التحقيق،

والتي هي في كل الأحوال، أبواب تطل على براءة الموقوفين، لم يجدها في هذين المحضرين، وهكذا سلك الدرب الوحيد الذي تركه له مفتوحاً ومعبداً المفوضون الثلاثة، فذهب السائق، ووكيل أعمال وهابي إلى ما وراء قضبان غرفة التوقيف، وبيعت أسماك ملك الصفاطين بأسعار بخسة ذهبت عن طريق الإيراد إلى خزينة الدولة، ومع ذلك فقد كانت تلك الأسماك ذات طعم تلذذ به أكثر من ثلاثة أرباع القاطنين في الماجدية..

ووهابي نفسه ليس ذلك الرجل الذي يمكن وصفه أنه لين العريكة... يبدو أن المفوضين الثلاثة لم يصطدموا به في الطريق مصادفة، بل هم اختاروه اختياراً، اختاروه كضحية لفرض هيبتهم وبأسهم كرجال قانون ما يزالون يحتفظون بدماثتهم وابتساماتهم. ومن المؤكد أن تلك السيارة لم تقع في قبضتهم بسبب مخبر مجهول لم يشأ ذكر اسم الصفاط مالكها مثلما قالوا فيما بعد لوهابي الذي ملأ الدنيا زمجرة ووعيداً. لقد كانوا يعرفون كل شيء عن تلك السيارة المهربة، لأن رجال وعمال وهابي كانوا يلتقون بهم في الشوارع والمقاهي، بل ويزورونهم في مركز شرطة الماجدية. كان اختيارهم لوهابي يعني مواجهة أقوى أسود تجار الأسماك قاطبة، فوهابي تربع على قمة هرم الصفاطين منذ زمن نسيه الناس لطوله، وهو رجل ذو ثروة ونفوذ وحظوة لدى الناس والمسؤولين، وسيّر خلال كل الأزمنة أساطيل لا عد لها من السيارات المحملة بالأسماك إلى بغداد والمحافظات الأخرى، إلا أنه لم يفهم لماذا قررت السلطات المحلية عدم تصدير الأسماك خارج العمارة خلال هذا الموسم. فكر الرجل بسمعته، فكر بمكانته بين الصفاطين، يعني أنه لم يفكر بالمال الذي فقده جراء فقدانه للسيارة، عندئذٍ نظر إلى الأمر برمته على أنه مكيدة، ومكيدة حقيرة صنعتها عقول عدائية منقادة إلى قلوب مترعة بالسموم. دخل مركز شرطة الماجدية زاعقاً وصارخاً وشاتماً المفوضين الثلاثة، وذاكراً أسماءهم الصريحة، خرج لاستقباله مأمور المركز والمفوضون الثلاثة، استقبلوه بوجوه مبتسمة وكلمات لينة معتذرة. كانوا يبدأون كلامهم بكلمة "عمي" وجعلوا ذلك الكلام سلساً، هادئاً، ودافئاً يرشح بما يشبه التوسل. ولأن ملك الصفاطين لم يستطع أن يرى، الآن، النجمات البيض اللامعة على وسائدها السود الصغيرة وما يمكن أن تفعله، لا لأنّها تومض بقوة القانون فقط، بل لأنها تمثل الحكومة، إنما رأى ثلاثة فتيان كانوا يتدحرجون أمامه في شوارع الماجدية، ثلاثة فتيان أولدهم آباء يعرفهم معرفة تجعله ينظر إليهم نظرة مَنْ لا يكلف نفسه القيام لهم لو مروا بمجلسه: حلاق في سوق النجارين وفراش

في محكمة وصفاط كان حتى الأمس القريب يعمل صياداً على أحد قواربه، وحتى الآن ما يزال يلجأ إليه لاستئجار القوارب والشباك. وهكذا تفاقم غضبه وتفاقم سخطه تجاه هؤلاء المتوسلين الثلاثة الذين جعلوه يصطدم بأنف الحكومة. وقال كلاماً سمعه الناس الذين تجمهروا أمام باب مركز الشرطة، سمعوه بوضوح تام لا لبس فيه، وكانوا على يقين أنه ليس كلاماً، بل تهديداً صريحاً، وفيما بعد، بعد أن خرج الصفاط من مركز الشرطة شهد سبعة عشر رجلاً وأربع عشرة امرأة، ووقعوا على شهاداتهم بالأقلام وببصمات الإبهام، وبقلوب مطمئنة غير خائفة وغير مجبرة، أنهم سمعوا وهابي يقول بصوت عالٍ وواضح جداً، أنه سيلقي المفوضين الثلاثة وليد وعدنان وجعفر في القمامة، وأن الحكومة، كل الحكومة من صغيرها إلى كبيرها، هي في جيبه، وأن القانون الذي تتبخترون تحت ظلاله لا يساوي عندي حبة فاصولياء، نعم حبة فاصولياء واحدة، كما شهدوا أنهم رأوا بأعينهم التي سيأكلها دود القبر غداً، كيف أمسك وهابي بالمفوض وليد من قمة قميصه وهزه عدة مرات في مدخل المركز، ثم ضربه بالحائط عدة مرات أيضاً قبل أن يخرج من المركز ويركب سيارته. وضع المفوضون الثلاثة محضر التحقيق أمام حاكم التحقيق، وأدخلوا عليه السبعة عشر رجلاً والأربع عشرة امرأة، الذين اضطروا إلى نقلهم في حوض سيارة الشرطة على ثلاث دفعات لكي يصدّق أقوالهم، ثارت ثائرة الحكومة التي اشمأزت من وصف قانونها بحبة الفاصولياء... امتقع وجه مدير الشرطة وهو يقرأ نسخة من المحضر، وسيّر كتاباً رسمياً موقعاً بإمضائه يطالب فيه من حاكم التحقيق، ضماناً رسمياً من وهابي على حياة المفوضين الثلاثة.

الآن، أصبح الظلام كاملاً حول وهابي، وذلك يعني أن المفوضين الثلاثة شقوا له الطريق الذي أرادوه أن يسلكه، وفي الساعة الواحدة ظهراً أعاده أولئك المفوضون إلى مركز الشرطة والقيود في يديه. رآه الناس في الماجدية زائغ البصر ومكشوف الرأس وهو جالس القرفصاء في الحوض الخلفي المكشوف لسيارة الشرطة. كان المفوضون الثلاثة قد رفضوا توسلاته، وكذلك التماسات أولاده وأبناء أخوته، ورفضوا أيضاً رجاء إمام جامع الماجدية، بعدم وضع القيود في يديه، بعدم نقله في سيارة الشرطة، بل بسيارته الخاصة وسيركب أحد المفوضين معه. قال وليد وابتسامة واسعة في وجهه:

. لحد الآن لم يغب عن بالنا أنه عمنا، بل هو بمثابة أب لنا، لكن لا تورطونا مع الحكومة ومع قانون الحكومة.

تراجع المتوسلون بسرعة أمام الحكومة وقانونها. سارت السيارة ببطء من بيت ملك الصفاطين إلى مركز شرطة الماجدية، تاركة الوقت الكافي لخروج الناس من دكاكينهم لرؤية وهابي المتقرفص في حوضها الخلفي المكشوف... أدار مأمور المركز ظهره لوهابي الذي قاده المفوضون الثلاثة وكلمات الاعتذار تتساقط من أفواههم، إلى غرفة التوقيف التي ما يزال يقبع فيها سائقه ووكيله.

سألوه من خلف القضبان إن كان يحتاج لشيء، غير أنه لم يسمعهم بسبب سخطه المتفاقم في كل لحظة والذي أغلق عينيه وسد أذنيه.

قال نجرس بعد أن أشعل سيجارة جديدة:

. حبس الحاكم وهابي لمدة ثلاثة أيام بشرط عدم قبول خروجه بكفالة..

قال ملوكي ورأسه فوق الماء فقط:

. لماذا رفض الكفالة؟..

. لأنه هدد حياة المفوضين.

أغطس ملوكي رأسه تحت الماء ثم أخرجه.. قال وهو يقذف الماء من فمه:

. أعتقد أن أحدهم سيقع قتيلاً، فآل وهابي لا تخيفهم الحكومة.

سرى الخوف إلى قلب المندائي، فحاول تغيير الحديث:

ـ ألا تخرج من الماء؟.. منذ متى لم تأكل؟... أنا لحد الآن لم أتناول غدائي... اخرج لنأكل سوية.

. اذهب، سآتي وراءك سريعاً.

ارتدى بدلته وحذاءه بعد ذهاب نجرس، بحث عن الزجاجة والقدح في أرجاء الورشة ولم يعثر عليهما، فزمجر:

. الصّنبي النجس... استولى عليهما...

بعد الغداء تطوّح ملوكي في شوارع الماجدية حاملاً صداعه إلى كل مكان. لم يجلس في مقهى أو يتوقف في أبواب دكاكين معارفه، فهو يعرف حول ماذا سيدور الحديث، إضافة إلى أنه لم يكن متلهفاً لسماع أكثر مما سمع حتى الآن. وصل إلى نهاية شارع الجامع، إلى حيث ينتهي الشارع المعبد وتبدأ الأرض الخلاء، الأرض السوداء الممتدة حتى شريط البساتين الذي يبدو وكأنه ينتصب على الأفق الشرقي. راقب شريط البساتين المغمور بطبقات من الدخان واحدة فوق الأخرى، وسيطر عليه إحساس بالكآبة لذلك الشفق الهزيل والضوء. ثم مرت من

فوقه سحابة طويلة وواسعة وغير متماسكة من أدخنة تنانير الماجدية، وشم رائحة حرق الحطب الجاف المنبعثة من البيوت القريبة. انكفأ إلى الخلف، لكنه لم يسلك الشارع الذي قدم منه، انكفأ إلى الأزقة المتشابكة، الأزقة، التي تولّد انطباعاً غريباً عن هندسة خرجت من عقل مشوش. كان يعرف الأزقة التي تقوده إلى شارع الملعب مختصرة مسافات كبيرة. سلكها لا لأنه لا يملك وقتاً يمكن هدره في سير ملتوٍ بين أزقة تلتوي وتدور هي الأخرى من دون استقامة أو نظام، بل لأنه يريد الوصول ما أمكنه من سرعة حتى يمر، أو يقف على مقربة من بيت ساهرة، فقلبه استيقظ الآن كما لم يستيقظ قلب بشري مثله. استيقظ قالباً كل مشاعره تجاه ما يحيطه من كائنات: بشر وبيوت وشوارع وحيوانات. اكتشف أن خطواته التي كانت قبل دقائق أو لحظات وئيدة وخالية من أي هدف، أصبحت سريعة باتجاه بيت ساهرة. فكر متسائلاً: أهذا ما يسمونه الحب؟... لم يبحث عن الجواب لأنه هو نفسه لم يشأ أن يجد الجواب، لأنه غير قادر على العثور عليه...

اخترق سوق الماجدية من الخلف.عبر شارع الملعب وتجاوز النصف الثاني من السوق ليغوص في الأزقة الكائنة خلفه. مر بفتاة متجاوزاً إياها بخطواته السريعة. لكن شرارة كهربائية صعقته وسمرته في مكانه:

. ملوكي... إلى أين أنت مسرع بهذه الخطوات؟

ووقفت أمامه حاملة رقية كبيرة وضاغطة إياها على أعلى بطنها فنفر نهداها متكورين إلى الأمام...هي نفسها التي سلمت عليه أمس، وهي نفسها التي قذفت به من فوق الجرف العالي إلى الصخور الخرسانية قبل اثنتي عشرة سنة، وهي نفسها التي قفزت وراءه وخنقته مهددة إياه بالموت إذا ما ذكر إنها هي مَنْ قذفته. ارتجف أمامها مثل محموم، ونز العرق من جميع مسامات جسده. توقع أنه سيغمى عليه إذا ما ظلت واقفة أمامه وقتاً أطول:

. مابك ملوكي؟... هل أنت مريض؟

أفاق ملوكي وهمهم:

. لا... كنت أسير مسرعاً.

لكن الأنثى داخل ساهرة رسمت ابتسامة ماكرة في الوجه الجميل. التقط ملوكي الابتسامة، كما التقط ثوب ساهرة البيتي، كان أبيض تنقطه دوائر حمر صغيرة، وظل هذا الثوب حتى آخر لحظة في حياته الذكرى الأكثر حميمية إلى قلبه وعينيه. في تلك اللحظة من ذلك الغروب الكئيب اكتشف مايدور في قلبه،

ذلك القلب الذي خانه تاركاً إياه ليتعلق بفتاة سببت له أقسى الآلام طوال شهور، عندما صنعت له حدبة في أعلى ظهره...

قالت ساهرة متغنجة بصوتها:

. ألا تساعدني..

وأشارت بعينيها إشارة ساحرة إلى الرقية. سار معها حاملاً الرقية والعرق ما يزال ينضح من وجهه بغزارة. كاد يطير في الهواء عندما تدفق عطرها في خياشيمه بعد عدة خطوات، وعرف أنه سيقف عاجلاً أم آجلاً أمام باب الموت بسبب قلبه الخائن. غير أنه وقف أمام بيت الصياد الأعرج. وقف هو في الخارج ووقفت ساهرة في الداخل وعتبة الباب الخشبية تقف بينهما. مدت يديها لتتناول منه الرقية، لكنه ظل جامداً كما لو أن تلك الصعقة الكهربائية أعادت الكرة عليه. طفت ابتسامة الأنثى للمرة الثانية في الوجه الجميل:

. ماذا يا ملوكي؟

شحب وجه ملوكي ليس بسبب السؤال، وإنما انتبه لأم ساهرة التي قدمت من فناء البيت إلى المجاز. وقفت إلى جانب ابنتها وناظرة إلى ملوكي بمزيج من الفضول والشك. سألت ابنتها من دون أن تحيد بنظرها عن ملوكي:

. مَنْ يكون هذا الفتى؟..

أجابت الابنة:

. ألم تعرفيه؟... إنه ملوكي...

. ملوكي ابن أخ جحيل؟

. نعم..

اختفت النظرة المريبة من عيني الأم، وقالت بلهجة مليئة بالحنان:

. ملوكي الصغير أصبح رجلاً ... لماذا لا تدخل؟

شكر ملوكي الأم بهمهمة غير مفهومة أو واضحة، ثم ناول الرقية إلى ساهرة وودع الأم والابنة بنفس الهمهمة السابقة. ظلت الأم والابنة تراقبان ملوكي وهو يختفي وراء منعطف الزقاق. سألت الأم:

. لماذا يلبس هذه البدلة التي يبدو فيها وكأنه مجنون؟..

رنت ضحكة ساهرة في المجاز.. أجابت:

. ملوكي مجنون منذ أن كان صغيراً..

لم يخدم الحظ ملوكي حتى يسمع مثل هذا الكلام، لا الآن ولا حتى في آخر لحظة من حياته. غير أنه عرف مثلما يعرف الرضيع الطريق إلى ثدي أمه، أن قلبه تعلق بابنة الصياد الأعرج. ولا يهمه الآن إن كانت قد أساءت له أم لا عندما صنعت له حدبة في الصغر، حاول مثلما حاول في الأمس أن يفكر بهدوء وهو جالس على مؤخرة قارب يؤرجحه تيار النهر في الجرف.

لكن الثوب الأبيض المنقط بدوائر حمر يدس نفسه بين فترة وأخرى ليربك تفكيره. مع ذلك، توصل إلى قناعة غير مبررة، يعني أنه لا يملك الأسباب الحقيقية لقناعته تلك، وهي أنه غير مرفوض من ساهرة. أو أن ساهرة لن تغلق الأبواب والشبابيك أمام حبه، لأنها هي التي فتحت تلك الأبواب والشبابيك على وسعها بابتسامتها وأسئلتها عن صحته، وابتلع ملوكي الحب مثلما ابتلع كؤوس العرق المترعة حتى قاعها. فكر بصفاء، وذلك يعني أنه فكر من دون أن يحشر ذلك الثوب الأبيض المنقط بدوائر حمر نفسه محدثاً الإرباك في تفكيره، أن ساهرة لا تعدو أن تكون الجزاء أو الجائزة أو العزاء، لا فرق، عن الإحباطات التي وسمت حياته، والتي وقفت حائلاً أمام طموحه ليكون رجلاً يُشار له بالأيدي.

اكتشف أن الظلام يحيطه من كل جانب. هرول إلى جورج منصور وعاد بربع زجاجة وثلاثة أكياس من النايلون. غاص في ظلمة الأكواخ وراء مخزن الأسماك، وكر راجعاً إلى لسان الأرض مضيفاً إلى حمله علبة كيكوز مليئة بالماء المثلج. مر بجماعة ليلة الأمس من دون أن يحييهم، وتوغل في اللسان حتى طرفه. هناك على الأرض الخشنة تحت النخلة السامقة، بسط مؤونته وجلس مريحاً حدبته على جذع النخلة غير المستوي. شرب كأسه الأولى مثلما شربها ليلة أمس، يعني أنه ملأها إلى الحافة وكرعها دفعة واحدة حتى قاعها. بدا ملوكي لمن يراقبه عن كثب أنه لم يتعلم أية خبرة من حفلة ليلة أمس، بل ظل غريراً يشرب العرق مثلما يشرب الحليب أو الماء، كانت جماعة المفوضين تراقبه منذ حل على لسان الأرض، وتراقب طريقة شربه، واتفقوا على إنها طريقة بائسة لا تليق بشارب خمرة حتى ولو كان مبتدئاً. تابعوا شربه للكأس ثانية؛ فقال المفوض عدنان بامتعاض:

. هذا انتحار... هل نضعه في الحبس؟

سأل علوكي:

. ماذا فعل؟..

. لم يفعل شيئاً، ولكننا سننقذه من هذا الشراب القاتل.

قال المفوض جعفر:

. لم يشرب سابقاً... إنه يجهل طريقة الشرب.

قطع حديثهم صوت مخشخش. صوت ارتفع من ناحية طرف لسان الأرض، مطلقاً آهات ضخمة متتابعة. انصتوا للصوت المتقطع، المتفجر والمنبعث من باطن أنبوب معدني ضخم، كما تصور جماعة المفوضين. كان أكثرهم إنصاتاً هو علوكي المغني ذو الوجه الجميل. حين تفجرت القعقعة فوق النهر قال علوكي متنهداً:

. أية أغنية هذه؟

فأجاب عدنان:

. إنها أغنية الصياد الصغير..

. ماذا يقول فيها؟

قال عدنان:

. الله وحده يعلم ماذا يقول فيها.

فجأة، توقف الضجيج المعدني القادم من طرف لسان الأرض. توقف كما لو أن شخصاً ما قرر أن يختفي الصوت الشارخ للأذان فحشر قطعة كبيرة من الفلين في فم ملوكي. وملوكي نفسه لم يتوقف عن غنائه المبهم لأن الكلمات كانت تعوزه، فهو قادر على أن يحشر حتى الفئران والقطط والكلاب في أغنيته، لكنه توقف حين صعدت أبخرة العرق إلى رأسه وهاجمت مافي داخل ذلك الرأس بضراوة، وحين ثمل تذكر أين دفن زجاجة الأمس والكأس، تذكر المكان بالضبط فتوقف عن الغناء، مع ذلك، لم يسرع إلى نبش الأرض والإتيان بها، فربع الزجاجة أمامه ما يزال فيه الكثير. ابتلع الكأس الثالثة بنفس الطريقة التي اعتبرها مثالية لمن ينشد الثمالة.ثم أخذت أبخرة العرق تهبط من رأسه لتحاصر قلبه المثقل والمملوء بعاطفة جديدة لم يسبق له أن أحس بها. تيقن وهو تحت طائلة الثمالة أنه عاشق، عاشق، ومعشوق أيضاً حينما استرجع كلمات وابتسامات ساهرة. قرر أمام يقينه هذا أن يسلك كل دروب الحب التي ستنفتح أمامه، وكذلك سيطرق كل دروب الحب التي ستنغلق أمامه، فهذا هو مصير العاشق الذي ينبغي عليه، هو ملوكي، أن يحمل أعباءه وأن يتقبل نتائجه برضى تام كنوع من القضاء والقدر. آمن ملوكي أن هذا الحب لم تسقطه ساهرة في قلبه، إنما هو القدر، قدره هو، إذ قُدر عليه وهو في بطن أمه أن يعيش سعيداً بقدره، وذلك يعني بلغة ملوكي: حبه.

هكذا نسي المطرقة التي هوت على قمة رأسه، ونسي أيضاً الشرارة الكهربائية التي صعقته عصر هذا اليوم، وانطلق محلقاً في الظلام الخفيف الراكد فوق النهر، انطلق لا كما تفعل العصافير بطيرانها السريع، بل مثلما تفعل الصقور في أعالي السماء، تدور ببطءٍ فاردة جناحيها من دون حركة أو رفيف لتوحي بالإجلال.

عند هذا الحد، أنهك ملوكي قلبه بتبعات العشق، وعقله بتفكير بدأ منذ كأسه الأولى.. وللمرة الأولى يداهمه إحساس بالسعادة، لم يقدم من الخارج، إنما انبثق مثل صاروخ من مكان ما من داخل جسده، فارتفعت أغنية الصياد الصغيرة لتداهم أول مَنْ تداهم مجموعة المفوضين التي تضخمت كثيراً فباتت حلقة واسعة من الشبان الذين أتوا إلى هذا المكان للمرة الأولى. جاؤوا جالبين معهم زجاجات البيرة والعرق والفواكه والبقوليات، وآملين أن يحصلوا من المفوضين الثلاثة خلال أبخرة العرق على تفاصيل أو إجراءات اتخذت في السر تجاه وهابي، من أجل أن ينشروها في شوارع وبيوت الماجدية، متخذين سمة المطلعين على بواطن الأمور، وبخاصة تلك التي تجري في دواوين الحكومة. كان المفوضون الثلاثة، وفي واقع الحال، المفوضون عدنان وجعفر، إذ أن المفوض وليد يقوم بواجبه الليلي كمفوض خافر في المركز، يعرفان نوايا القادمين والمشاركين لهما في حفلتهما في وسط لسان الأرض. ولأن الحال في وضعه العام لا يخصهما قدر ما يخص أعمال الدولة، فقد تمترسا وراء درع سميك من الصمت حول مصير وهابي. بعد منتصف الليل بدأ القادمون الفضوليون بالانسحاب حاملين أسفهم وقنوطهم وتاركين وراءهم الزجاجات فارغة.

كان جلاس حفلات المفوضين الثلاثة علوكي وعلي بن موسى وعلي بن وحيد وعلي بن حسين لا يهمهم إلى أي مكان سيصل مصير وهابي، وماذا يمكن أن يفعله أو ما متوقع أن يقوم به آل وهابي ضد المفوضين الثلاثة. كان يهمهم أن ينتظموا في تلك الدائرة اليومية المعتادة والكؤوس في أيديهم، يستمعون أو يروون النكات والمقالب التي جرت خلال هذا اليوم في الماجدية.

يذكرون مَنْ تزوج ومَنْ مات على سرير المرض ومَنْ مات ملفوفاً بعلم الوطن.تيقنوا تماماً أن وهابي أفسد حفلة ليلتهم هذه بسيارته المهربة وهجومه على الحكومة، مع ذلك، واصلوا قرع كؤوسهم بعد رحيل الفضوليين، محاولين إعادة الحفلة لتسير في طريقها الاعتيادي الذي يعرفونه جيداً والذي تعودوا عليه منذ أول ليلة شهد لسان الأرض فيها قنانيهم وكؤوسهم وجمرات سجائرهم المتوهجة بين أصابع أيديهم.

انسل علي بن موسى من الحلقة هابطاً لسان الأرض إلى الساحل ليفرغ مثانته، خلال عودته نظر إلى طرف اللسان وتساءل:

. هل فر ملوكي؟..

الآن، في هذه اللحظة فقط، تذكروا ملوكي. التفتوا إلى طرف اللسان ثم إلى بعضهم، واستولى عليهم ما يشبه الذهول. قال علي بن حسين:

. أنا جالس على الحافة المقابلة للحافة التي تجلس عليها يا عدنان، لو مر من هنا فإنه سيحتك بي... أنا لم أره يمر.

قال المفوض جعفر:

. إذن، سقط على الجرف.

هبط الجميع على الجرف تحت لسان الأرض المرتفع. داروا حول اللسان وخوضوا حتى منتصف سيقانهم في مياه الساحل، ولم يعثروا على ملوكي. عادوا إلى مكانهم، لكن علوكي استمر في سيره نحو نهاية اللسان. بحث في المكان الذي كان يجلس فيه ملوكي. لم يعثر على زجاجة أو قدح. انضم إلى رفاقه وهو يقول:

. مر بنا من دون أن نراه... لم يترك قدحه وراءه..

سأل عدنان :

. كيف حدث هذا؟... أعني كيف مر بنا من دون أن نراه؟

قال جعفر:

. أشياء غريبة طرأت على هذا الأحدب الأسود.

قال عدنان:

. يجب أن نحذر منه.

لكن علوكي قال ضاحكاً:

. هذا الصياد الصغير وجد أغنيته أخيراً..

←←

- 5 -

في ضحى اليوم الثالث لمأتم ملوكي، وهو اليوم الأخير لمجلس الفاتحة كما هو مفترض، وضع المفوضون الثلاثة سبعين ديناراً في يد جحيل، أربد وجه الرجل وهو يرى دفاتر المفوضين الثلاثة تكاد تمتلئ بأسماء المتبرعين بالمال وبأسماء المتبرعين بأكياس الرز والطحين وصفائح الزيت النباتي والخراف الحية والمذبوحة. فكر: كيف أفي كل هؤلاء في مصائبهم؟... تحرك ألم من أسفل بطنه وصعد إلى منتصف صدره حين لمح ثلاث صوانٍ كبيرة تخرج من بيت المفوض وليد، وتتجه نحو السرادق، قام حاملوها الفتيان بوضعها في أماكن متباعدة في وسط السرادق. حوت تلك الصواني صحوناً كبيرة مليئة بأفخاذ الدجاج وصدورها المقلية بالزيت، وتوزعت على حواف الصواني أرغفة كثيرة من الخبز. قدّر جحيل أنهم قلوا أكثر من عشرين دجاجة. أوقف تفكيره عند هذا الحدّ. لأنّه لا يعرف أين ستنتهي هذه الأمور، وكان واثقاً من ذلك تماماً، مثلما كان واثقاً أن هذا يحدث أول مرة في مجلس فاتحة ملوكي، فهو يعرف مثلما يعرف كل القاطنين في الماجدية، أن الطعام لا يقدم إلا في مساء اليوم الثالث، وهذا يعني أن مجلس الفاتحة يُختم بوجبة عشاء..

نهض المفوض جعفر واتجه إلى صواني الأكل، وعاد بصحن مليء بالدجاج ورغيفي خبز وضعهما أما جحيل. خاطبه وليد حين رأى تردده:

. أكل هذا الطعام ثواب... ثواب لملوكي...

قال جحيل:

. أشبعتم ملوكي ثواباً أمس وأول أمس..

قال المفوض عدنان:

. سنغرق روح ملوكي بالثواب.. سنخنقها بالثواب يا جحيل..

نظر وليد وجعفر إليه بذهول ساخط. فَهَمَ أنه ليس من الكياسة التهكم أو السخرية من ملوكي وروحه ما تزال تجلس الآن منزوية في مكان ما من السرادق. غطى وليد على تهور عدنان حين خاطب الجالسين في السرادق:

. تفضلوا إلى الأكل... مَنْ كان جائعاً ليتفضل، فتناوله واجب لأن فيه ثواباً.

وأضاف عدنان محاولاً التكفير عن خطئه:

. هذا طعام أبناء السبيل ، فتفضلوا يرحمكم الله.

لم يكن الجالسون في السرادق بحاجة إلى كل هذا الكلام، فهم تابعوا صواني الدجاج منذ دخلت وتوزعت على أرض السرادق. تابعوها وانغرزت أبصارهم في لحم الصدور والأفخاذ المحمر والملتمع بالزيت الذي ما يزال يسيل منه، وعلى الرغم من أن الوقت ما زال مبكراً من الصباح، فإن السرادق مكتظ بالناس، وكان معظمهم من الجنود القادمين من الجبهة، ومن الجنود الذين سيذهبون إلى الجبهة. شارك أولاد جحيل التسعة في تناول طعام أبناء السبيل مزاحمين المعزين بضراوة برغم أنهم لم يفارقوا السرادق منذ أمس، لم يبتعدوا عنه ولا خطوة واحدة، حتى أنهم لم يناموا في بيتهم ليلة أمس، وأمضوا كل هذا الوقت لا في تلقي العزاء بمصابهم من القادمين إلى مجلس الفاتحة فقط، بل أكلوا وشربوا ودخنوا وملوا من قراءة سورة الفاتحة على روح فقيدهم المرحوم، فلجأوا إلى قراءة نصف السورة، إذ ما حاجة روح ملوكي للسورة كاملة، هكذا فكروا. استيقظوا صباح هذا اليوم بعيون محمرة. لم يكن جحيل قد رآهم بهذه الهيئة صباح أمس، وماكان أحد من المعزين ، ولا حتى حجيل نفسه، يسمح لأفكار سيئة تراوده، فهم في كل الأحوال، أبناء عم المرحوم، إضافة إلى أن ثلثهم أو أكثر قد أمضى طفولته وصباه وشبابه في رفقة ابن العم الفقيد.

عند منتصف النهار، وحالما أزت النيران تحت القزانين مطلقة دخان الحطب الكثيف، عبرت مجموعة كبيرة من الجنود الجسر الملتوي قادمة من محطة المسافرين. انضمت إلى جنود الضحى الذين لم يغادروا السرادق. راقب جحل بذهول مَنْ لا يصدق ما يجري أمامه من جموع المعزين الذين كانت طلائعهم من الجنود، ثم تقاطر رجال من الماجدية كانوا قد قدموا أمس أيضاً.

كما راقب وبنفس الذهول ذبح الخروف الأخير وسلخه وتقطيعه ورمي قطعه الكبيرة والصغيرة في أحد القزانين. راقب أيضاً كيف أزاح المعزون الذين وصلوا متأخرين جموع الأطفال والصبيان شبه العرايا الحاملين قدوراً قصديرية من مختلف الأحجام، ليعودوا بها مليئة بالرز واللحم والمرق إلى عوائلهم، راقب الطباخين

الدائرين حول القزانين والمحركين مغارفهم من دون توقف... طباخون لم يرهم سابقاً تحزموا بكوفياتهم ورفعوا الأطراف الأمامية لدشاديشهم مثبتين إياهم بكوفياتهم المعقودة بإحكام حول بطونهم. أيقن جحل وهو يرى جموع الجنود، والرجال من كل صنف، والأطفال والصبيان الفقراء، أن مجلس الفاتحة هذا يمكن أن يكون كل شيء أو هو يشبه أي شيء ما عدا أن يكون أو يشبه مجلس فاتحة، وتساءل بصمت: هل يمكن أن يجري كل هذا الذي يجري أمامي من أجل روح ملوكي؟... لم يكلف نفسه مشقة البحث عن إجابة، لأن كل هذا كان يجري أمامه، ولن يحتاج أحد إلى حجة أو وقت ليثبت ذلك. تفجر سخط عارم في صدره، سخط ليس بمقدوره التعبير عنه أو التخلص منه ولو بصرخة واحدة. ومع ذلك، لم يستطع التحكم به، يعني أن ذلك السخط تمرد عليه وأحاله إلى كائن إنساني ضعيف يصيح فجأة بصوت عالٍ:

. روح ملوكي؟

لكنه أوقف الكلمات الأخرى، الكلمات التي تجمعت على ظهر لسانه من دون أن يفكر بها مسبقاً، أو من دون أن يقوم بتهيئتها في رأسه. كان قد تُرك وحيداً على أريكته الطويلة في باب السرادق، وكان قد جزع من كثرة تقديم التعازي إليه. نبش في ذهنه المذهول ما إذا كان قد رأى فيما مضى مثل هذه الولائم في مأتم شخص ما، لكنه لم يصل إلى شيء يجعله قادراً على عقد مقارنة مع ولائم مأتم ملوكي.

نضج الطبيخ في القزانين حوالي الساعة الواحدة ظهراً. تلقى الطباخون أوامر المفوضين الثلاثة بتقديم الطعام للمعزين في السرادق. وخلافاً لليوميين الماضيين لم يقدم الطعام في صحون صغيرة، بل نُقل الرز من القزان إلى صوانٍ كبيرة بمغارف خشبية ضخمة تشبه مجارف البناء، وفوق تلال الرز وضعوا قطع اللحم الكبيرة. تعاون أربعة رجال لنقل كل صينية من أمام القزانين إلى داخل السرادق.

ثم جاء المرق من البيوت في الجوار في معاجن الخبز الكبيرة، ولحقت بالمعاجن أعمدة عالية من أرغفة الخبز، يحملها صبيان من منتصف بطونهم حتى مستوى أنوفهم. حين انتهى الطباخون من ملء الصواني، أحاط بهم الأطفال والصبيان والقدور القصديرية في أيديهم. انسحب الأطفال راكضين نحو بيوتهم بقدورهم المملوءة رزاً ولحماً، ثم عادوا مرة ثانية بقدور أخرى لأخذ المرق والخبز من بيوت الجوار.

في داخل السرادق بدأ المعزون أكلهم مثلما يفعل قطيع من الذئاب الجائعة.

هجموا على قطع اللحم الكبيرة، وكادت تحدث مشاجرات لولا تدخل المفوضين الثلاثة بين الحين والآخر. غير أن الطعام كان كثيراً، كثيراً بحيث أن الطباخين أعادوا ملأ الصواني التي فرغت. بدا لجحل أن الناس أخذت تمشي على الطعام. كان جحل نفسه قد امتلأ رزاً ولحماً ومرقاً وخبزاً، فقد وضع المفوضون الثلاثة أمامه صينية أصغر حجماً من صواني المعزين، شاركه فيها مقرئ القرآن...رفعت الصواني الفارغة بعد أن تجشأ معظم الآكلين. جاء الآن الشاي الذي صُب في أقداح كبيرة، ودارت صواني الشاي أكثر من مرة في السرادق. ظل الطعام يقدم للقادمين المتأخرين حتى ساعة الغروب.

قبل ساعة الغروب بوقت قصير توقفت سيارتان الأولى شاحنة صغيرة بحوض خلفي، أنزل منه السائق والرجل ذو الكوفية والعقال الذي كان جالساً معه في القمرة الأمامية، عجلين ليسا بالكبيرين ولا بالصغيرين. ظل الرجل ذو الكوفية يؤكد للجالسين حواليه في السرادق فيما بعد، أن عمريهما بالكاد يبلغ السنة. والسيارة الثانية وقفت في الطرف الثاني من العراء الممتد بين جسر الكحلاء والجسر الملتوي، الطرف القريب من جسر الكحلاء، سيارة طويلة من صنف حافلات نقل الركاب. وقف مساعد السائق أمام مقدمتها وصاح بصوت طغى على صوت مقرئ القرآن:

. بغداد... بغداد...

ذلك كل ما وصل إلى السرادق. لم يتوقع أحد، ولا حتى المفوضين الثلاثة أنفسهم، أن هذا النداء المنطلق باستمرار في محطات سيارات نقل المسافرين يمكن أن يحدث فوضى وضجيجاً مثل فوضى وضجيج التلاميذ الصغار حال خروجهم من مدارسهم. رأى المفوضون الثلاثة كيف أحدث ذلك النداء ما يشبه زوبعة عصفت بالسرادق. كانوا قد رأوا أولئك الجنود وحقائب السفر الصغيرة بين أقدامهم على أرض السرادق منذ الصباح، أكلوا من طعام أبناء السبيل، ثم تجمعوا في ساعة مابعد منتصف النهار حول صواني الرز واللحم ومعاجن الخبز المليئة بالمرق، وواصلوا منذ الضحى شرب الشاي والقهوة وتدخين السجائر، إلا أنهم الآن، بعد ذلك النداء، يتقافزون مثل الفئران الهائجة وحقائبهم الصغيرة معلقة على أكتافهم... خرجوا من السرادق راكضين يصطدم بعضهم ببعض، ويزاحم بعضهم بعضاً، ناسين أن يقرؤوا سورة الفاتحة على روح ملوكي. هم، الآن، يركضون في الشارع باتجاه السيارة الواقفة في الطرف البعيد من الأرض الخلاء، وحقائبهم الصغيرة المعلقة إلى أكتافهم تتأرجح على ظهورهم مثل بندولات ضخمة. بدا

للمفوضين الثلاثة أنهم يرون روح ملوكي تبكي في زاوية من السرادق.

قال المفوض عدنان بسخط:

. حتى أنهم لم يقرؤوا سورة الفاتحة.. هل نطرد الجنود إذا ما جاؤوا مرة ثانية؟

أجابه المفوض وليد:

. لا...

. هل رأيت ماذا فعلوا بعد ذلك الأكل والشاي والسجائر؟..

ـ اضطروا على القيام بذلك... ليست هناك سيارات في المحطة، ثم تقف سيارة على مقربة منهم، فماذا تعتقد أنهم فاعلون؟

قوطع حديثهما، بل أُنهي، لأنهما لم يعودا إلى فتحه فيما بعد، كما لو كانا قد نسياه تماماً ونسيا معه روح ملوكي الباكية. كان عامل القصاب الذي كلفه رب عمله أن يرابط في مجلس الفاتحة.

لكي يقوم بذبح الحيوانات هو مَنْ قطع حديثهما بسؤال اعتبره ملحاً:

. ماذا أذبح؟

قال المفوض وليد باستغراب:

. ماذا تعني؟

. هل أذبح عجلاً واحداً أم الاثنين معاً؟

. واحداً... واحداً فقط.. والآخر ستذبحه غداً..

تساءل عامل القصاب بدهشة:

. غداً؟.. ماذا تعني بغدٍ؟..

أجابه المفوض وليد بلهجة رصينة ولكنها آمرة:

. أنت تسأل كثيراً... افعل ما أقوله لك..

توهجت النيران مرة ثانية تحت القزانين في ضوء الغروب الواهن مطلقة أدخنتها الكثيفة إلى الجانبين والأعلى، ودوت أصوات الطباخات النفطية التي تعمل بضغط الهواء تحت قدور المرق الكبيرة في بيوت عديدة في الجوار، وانهمكت أكثر من اثنتي عشرة امرأة في بيوت متفرقة في الجوار أيضاً بإشعال النيران في التنانير. كانت أصوات النادبات اللاطمات في عزاء النساء تعبر النهر وتصل إلى البيوت في الجانب الآخر.

بذل جحيل جهداً هائلاً لكي لا يفر أو يعود إلى بيته مهرولاً حين رجع إلى السرادق في الساعة السابعة مساء. لم يكن ليخطر في بال جحيل، ولا حتى في خياله، أنه سيعيش ليرى مثل هذا الحشد الغفير من الناس الذين أقبلوا على السرادق. لكنه تقدم بخطوات مهزوزة، مرتبكة نحو المكان الذي قُدر له أن يجلس فيه والذي يتقبل فيه تعازي القادمين من دون أن يغادره. جاء المعزون هذا المساء، ليس من الماجدية فقط، بل من كل أنحاء المدينة، فهذا اليوم هو اليوم الثالث لمجلس الفاتحة، وهذا يعني أنه اليوم الأخير، وهكذا قدم كل أولئك المتخلفين الذين يعرفون بهذا المجلس لكنهم تخلفوا عن المجيء خلال اليومين الماضيين لسبب من الأسباب. عاد الفزع القديم، فزع الأمس يطرق جحيل طرقاً أمض من السابق، فقد رأى ثلاثة دفاتر جديدة في أيدي وليد وعدنان وجعفر، وهذا يعني أنه لن يكون قادراً على تسديد ديون الموتى حتى لو عاش حياة ثانية مضافة إلى حياته الحالية.

راقب جحيل وفود المعزين التي لم تنقطع عن القدوم. كان السرادق قد اكتظ، وحشر الناس أجسادهم على الأرائكالخشبية الطويلة، من دون أن يتركوا مسافة اصبع بين الواحد والآخر. خرجت أرائك أخرى من صف البيوت المطل على السرادق وصفت جنباً إلى جنب حتى منتصف المسافة بين السرادق وجسر الكحلاء كان المعزون مثلما رآهم جحيل خليطاً ضخماً من الجنود ورجال الشرطة والصفاطين وتجار المواشي والمعلمين والموظفين وأصحاب المهن الحرة. كانوا يصافحونه بمودة مبالغ بها ويسمعونه كلمات عزاء رقيقة أكثر مما يجب، غير إنهم يعطون النقود للمفوضين الثلاثة الذين يفتحون دفاترهم ويسجلون الأسماء، وكان هذا يضاعف تعاسته، فكر، مثلما يفكر الرجال البسطاء من أمثاله الذين ولدوا وعاشوا وعملوا وتزوجوا وأنجبوا أبناءً يشابهونهم تماماً والذين لم يخطر في بالهم ولو للحظة أن يرفعوا أنفسهم درجة واحدة فوق الآخرين.. فكر إن كان ملوكي على معرفة بكل هؤلاء المعزين. لكن فكره المشوش بديون الموتى لم يهتم بالحصول على الإجابة، لأنه هو نفسه كان يجهل كل شيء عن ابن أخيه الذي ولد ونما في بيته ومات على قارعة الطريق، بل هو يجهل أيضاً كل شيء عن أولاده التسعة، فوشائجهم مع البيت ليست أكثر من تمددهم على أسرّة النوم العاجزة عن الحديث عن تفاصيل حياتهم.

كان المعزون يأتون ويودعون، ودأب المفوضون الثلاثة على حجز الكثير منهم لتناول العشاء جاء علي بن وحيد وأخبر المفوضين الثلاثة، أن المقرئ يريد

أحدهم.

أحاط المفوضون الثلاثة بالمقرئ الذي سألهم بصوت عالٍ:

–هل أختم مجلس الفاتحة؟.. وفي أي وقت أختمه؟

همس المفوض وليد في أذنه:

–اخفض صوتك يا رجل الدين الحقير.

انتفض رجل الدين:

–حقير؟.. مَنْ؟.. أنا؟.. ياأولاد الكلبة الجرباء..

أسكته المفوض عدنان:

–تحدث بهمس.. أتريد أن نضعك في الحبس؟

–لماذا؟

أجابه وليد:

–منذ متى والقانون يسمح لرجال الدين أن يجروا عقود الزواج والطلاق؟

علت ابتسامة في وجهه المرتعش باستمرار.. قال:

–يا أولاد الكلبة الجرباء

كان رجل الدين ومقرئ القرآن صديق طفولة المفوضين الثلاثة، ذهب معهم إلى المدرسة قبل أن يفقد بصره. كان صوته جميلاً منذ الطفولة، وحين أصبح أعمى أخذ يغني في الأعراس وحفلات ختان الأولاد، لكن رجل دين كبير مر بالمدينة، واستمع إلى صوته فأقنعه أن ينتمي إلى مدرسة دينية في مدينة النجف، وعاد بعد خمس سنوات بعمامة وجلباب، وبدأ يخطب في الناس أيام الجمع في جامع في طرف المدينة، لكنه اعتاش على تلاوة القرآن في مجالس الفاتحة.

قال رجل الدين:

–متى ستختمونه إذن؟

قال المفوض وليد:

–لم نقرر بعد.. ربما بعد عشرة أيام

احتج رجل الدين:

–عشرة أيام؟ في هذه الحال جدوا لكم مقرئاً آخر

قال المفوض وليد:

–أنت هو المقرئ

أصر رجل الدين:

–لن أواصل في هذا المجلس.. أذهب إلى الحبس ولن..

أسكته المفوض عدنان مرة ثانية:

–دع الليلة تمضي بسلام

وأمضى الليلة بسلام. حين خرج آخر المعزين مودعاً بعد وليمة العشاء التي استمرت حتى الساعة الأخيرة قبل منتصف الليل، بكى المفوضون الثلاثة على رحيل ملوكي المبكر. أطفأوا المصابيح، وقبل أن يتركهم جحيل ذاهباً إلى بيته سألهم:

–سبعة أيام؟.. لماذا؟

قال المفوض جعفر وخطا الدموع ما يزالان على خديه:

–ليس كل يوم يموت ملوكي.

من ناحية كتف النهر خلف السرادق، تسلل أولاد جحيل التسعة إلى الداخل بعد ذهاب أبيهم بعشر دقائق. ثم تبعهم علي بن وحيد وعلي بن حسين وعلي بن موسى، وكان آخرهم علوكي الذي يحضن إلى صدره شوالاً. في عمق السرادق نظموا لهم مكاناً بتغيير أماكن الأرائك الطويلة، رتبوها بسرعة ونظام وبصمت كما لو أنهم تعودوا على القيام بهذا العمل، أو كانوا قد قاموا به قبل الآن أكثر من مرة. وهكذا جلسوا في الفسحة الأخيرة المحجوبة بالأرائك، وما كان باستطاعة أحد أن يراهم إذا ما دخل السرادق على حين غرة. أخرجوا صحوناً مليئة بالكبدة المقلية مع البصل والطماطة، وصحوناً وكاسات صغيرة مترعة باللبلبي والخيار واللبن الرائب، وبين الصحون نهضت زجاجات كاملة من العرق كان المفوضون الثلاثة قد فرغوا، منذ الليلة الأولى لمجلس الفاتحة، من إسناد فلسفتهم الخاصة بنسيان حزنهم أو إغراق ذلك الحزن القاتم لفقدان ملوكي على دعائم قوية من قناني العرق. وشاركهم في هذه الفلسفة أولاد عم ملوكي التسعة وعلي بن وحيد وعلي بن حسين وعلي بن موسى وعلوكي.

كان المفوضون الثلاثة ما يزالون، حتى هذه اللحظة من الليلة الثالثة لرحيل ملوكي، تحت تأثير صدمة الموت المفاجئ لرفيقهم. وهكذا بدأوا بعد كؤوسهم الأولى في ذكر وتعداد مناقب الفقيد، وقالوا فيه كلاماً له القدرة على تمزيق أغلظ القلوب، وهكذا نحبوا بأصوات عالية خلال ما كانوا يكرعون كؤوسهم الثانية. فجأة

رن صوت جحيل من وراء قماش السرادق:

–وليد.. وليد.

تجمد الدم في قلوبهم مثلما تجمدت أيدي البعض منهم وهي تحمل الكؤوس. نظروا بعيون زائغة إلى المفوض وليد الذي عامد سبابته إلى فمه. لم يكن جحيل على معرفة بما يجري داخل السرادق. فهو حين ذهب إلى البيت، تقلب الآف المرات على فراشه فوق السطح، وكانت دفاتر ديون الموتى تهاجمه من كل جانب مثل قطيع من الذئاب. هب من فراشه وجاء مسرعاً إلى السرادق، ولم يستطع أن يمرق من بابه الذي أغلق بحبال عُقدت بإحكام من الداخل. دار حول السرادق وسمع نواح الموجودين في الداخل، وعلى الرغم من شعوره أن قلبه تشظى إلى ملايين القطع الصغيرة، إلا أن دفاتر ديون الموتى أعادت لصقها مرة ثانية.

–وليد.. يا وليد.

–ماذا تريد يا جحيل؟.. ألا يمكن أن تتركنا نبكي براحة؟

شعر جحيل بالذنب، غير أن تلك الديون كانت أثقل على قلبه من هذا الذنب الجديد.. قال:

–الدفاتر يا وليد..

–عن أية دفاتر تتحدث

لانت لهجة جحيل حتى اقتربت من التوسل والمسكنة.. قال:

–أنت تعرف جيداً وكذلك عدنان وجعفر أنني رجل فقير.. وأولادي لن يذهبوا إلى أي مجلس فاتحة ليعطوا نقوداً.. أنا يا وليد كيف أسدد ديون الموتى؟.. تلك الدفاتر التي امتلأت ثم فتحتم دفاتر أخرى..

قال وليد بغضب:

–أجئت لتقطع بكاءنا على ملوكي بحديثك عن الدفاتر؟

–إنها ديون يا وليد ويجب أن تسدد.

–اذهب يا جحيل ونم ولا تشغل دماغك بأي دفتر، فالدفاتر الأولى التي امتلأت رميناها في النهر، وستلحق بها الأخرى التي فتحناها متى ما امتلأت.

قال جحيل بدهشة:

–رميتوها في النهر؟

–أكنت تريد أن تحتفظ بها؟.. إن أحداً لن يطالبك بتسديد دين ميت، لأن

الدفاتر ليست معك.. هل معك الدفاتر؟

-لا.

-إذن، إذهب يا جحيل ونم ودعنا نكمل بكاءنا.

ابتعد جحيل عن السرادق بخطوات لم يثقلها أي ذنب من أي نوع. اتجه إلى بيته بخطوات سريعة كما لو أنه يهرب من وكر للشياطين، كان قلبه في تلك اللحظات مشحوناً بالكدر والسخط بسبب حقوق المعزين التي رماها المفوضون الثلاثة في النهر. غير أن الطمأنينة أخذت بالعودة إلى قلبه المطعون بالجحود وغمط الحقوق، حين تذكر سلوك المفوضين الثلاثة، حين تذكر ما قاموا به من أعمال.. لكنه سرعان ما استغفر ربه فربما ظنونه كانت افتراءً من الآخرين على المفوضين الثلاثة، مع ذلك جافاه النوم حتى ساعة متأخرة من الليل.. جافاه لأنه وجد نفسه، وكان متأكداً من ذلك، إنه سيشترك في ابتلاع حقوق المعزين لو أنه جلس غداً وظل جالساً حتى اليوم السابع لمجلس الفاتحة ليتقبل العزاء منهم، وفي الوقت نفسه يتقبل المفوضون الثلاثة مالهم الذي يدفعونه مساهمة منهم في تخفيف أعباء ذوي الميت. فكر: هذه سرقة في وضح النهار، بل هي سرقة تحت ظل آيات القرآن الكريم. قرر أن يفر من البيت في الفجر ليذهب إلى عمله كما قرر أنه لن يجلس أبداً في باب السرادق.

←←

- 6 -

ومثلما حدث في الليلة السابقة، نام ملوكي بين قاربين مقلوبين على الساحل، ولكنهما ليسا نفس قاربي الليلة الماضية. رآه نجرس في الضحى حين قدم إلى الورشة عارياً إلا من ملابسه الداخلية، متكوراً في ذلك الوضع الذي يتخذه الجنين في بطن أمه، وظهرت حدبته كما لو أنها كبرت كثيراً عما كانت عليه فيما مضى، غير أن المندائي لم ينشغل بالحدبة، إنما تساءل:

–هل سلبوه بدلته وهو نائم؟

اطمأن المندائي عندما رأى تلك البدلة الرمادية المزرقة المليئة بالحروف الأجنبية، رآها مرمية على ظهر أحد القاربين المقلوبين بإهمال. كان ملوكي قد استيقظ في الفجر سابقاً قرص الشمس الذهبي في تسلقه الأفق، وشاعراً بنفس شعور العاشقين المولهين الذين يجعلهم يقدمون على ارتكاب الحماقات بنفس راضية. نزع بدلته وحذاءه وغطس في النهر بعينين ما زالتا مطبقتي الجفنين. لسعته برودة الماء فأغطس رأسه وظل مغطساً إياه ولم يخرجه إلا حين انقطع نفسه، ثم تلاءم مع برودة الماء. كان يحس بتيار الماء يدور بين ساقيه، ثم انفتحت عيناه عندما انبثقت ساهرة في رأسه الذي ما زال ينوء بثقل السكر. لكن ساهرة اختفت بسرعة، حاول أن يسترجعها، أن يعيدها إلى ذلك الرأس المملوء بطنين غامض، حاول وهو يفتح عينيه على وسعهما، ثم حاول وهو يغمضهما بقوة، إلا أن الحبيبة حلقت بجناحين إلى أعالٍ مجهولة. وبدلاً من أن ينعشه ماء النهر البارد، ينعشه ويفيقه ويوقظ مكامن قوته التي خدّرها السكر، دهمته موجة رقيقة ولذيذة من النوم. قاومها برقة أيضاً، يعني أنه لم ينتفض ويقفز من النهر إلى الجرف، بل سار في الماء متمايلاً، ناقلاً قدميه فوق قاع النهر ببطء شخص حالم، وخرج من الماء الضحضاح الذي كاد يغدر به ويجرفه إلى أعماق النهر، ومراراً ببدلته المرمية على ظهر القارب، حتى دون أن يراها، وملقياً نفسه بين

القاربين في نفس مكانه السابق. لم تبقَ تلك الموجة محافظة على رقتها اللذيذة، فقد تحولت الآن إلى طبقات من الدخان والألوان المتغيرة بسرعة لم يسبق لملوكي أن رأى مثيلاً لها.

اضطر نجرس أن يوقظ ملوكي في الضحى، لأن كلباً سائباً جاء وأخذ يلعق وجه ملوكي أزال اللعاب اللزج عن وجهه، وسأل:

–من فعل ذلك؟

–ذلك الكلب.

قال ملوكي بغضب:

–وتركته يفعل ذلك؟

لم يرد عليه. اتجه إلى كورة القار وبدأ في تهيئتها. غطس ملوكي في ماء النهر مرة ثانية، لا ليسترد حلماً ضاع منه في الفجر، بل ليزيل لعاب كلب سائب. اعتبر ما قام به الكلب في وجهه نذير فأل سيء، ربما لن يستطيع الفكاك منه حتى آخر العمر. فكر، خلال ما كان يدخل جسمه الضئيل في بدلته الفضفاضة، بزجاجة عرق أول أمس وبالقدح أيضاً، وأصيب بالذهول لأنه لم يتذكر أين خبئهما، هو متأكد أنه تذكر أين دفنهما عندما كان يشرب ليلة أمس، مثلما هو متأكد من أنه برأ ذمة نجرس من سرقتهما. إلا أنه الآن عاجز تماماً عن تذكر المكان كما لو أن شخصاً قام بمسحهما من دماغه أو قشطهما بسكين، فآمن بالنذير السيئ الذي جاءه على ظهر لسان كلب.

أوقفه نجرس قبل أن يمر به قائلاً:

–لا تتأخر.. لدينا زورق جاهز لتقييره

–في أية ساعة؟

–بعد الغداء

–كيف أعرف متى تتناول غداءك؟

–إذن، بعد الساعة الثانية ظهراً.

بذلك اعتبر ملوكي نفسه عاملاً بإجرة يومية في ورشة نجرس. كانت الماجدية أو سوق الماجدية الواقع في منتصف شارع الملعب، يزود المشترين بآخر المعلومات عما حدث لوهابي، وعما فعله آل وهابي خلال يوم أمس وصباح هذا اليوم. توقع الناس في الماجدية أن آل وهابي سيجندلون أحد المفوضين

الثلاثة، هذا إذا لم يجندلوهم ثلاثتهم، لأن عشيرة وهابي، ويعنون بتلك العشيرة أولاده وأخوته وأولادهم، قوية الشكيمة ومن ذوات المال المتنفذ. حتى آباء المفوضين الثلاثة توقعوا أن مصائب كبيرة ستصطدم بأبواب بيوتهم. لكن ليلة أمس مرت بسلام، وهذا الصباح يقترب من الظهيرة من دون أن يلد منه شيء. ثم جاءت الأخبار إلى السوق في الظهيرة من مصادر موثوق بها: تخلى المسؤولون المتنفذون في الدولة عن وهابي، وحتى نائب المحافظ الذي كان يفخر وهابي أمام الأصدقاء وغير الأصدقاء بصداقته الحميمة له، حتى هذا المسؤول الكبير أربد وجهه حين سمع بالأمر، ولم يربد وجهه استنكاراً لما جرى لصديقه، بل غضباً على هذا الصديق الجاحد لكل ما قدمته له الدولة، بل وصنعت منه رجلاً بعد أن انتشلته من فوق زوارق الصيادين البائسة، إن شرارة الغضب هذه أشعلتها مصادفة لا تحدث إلا مرة في كل مائة عام، إلا أنها حدثت لتجعل من وهابي رجلاً يستحق الرمي بالرصاص في ساحة عامة. كان نائب المحافظ يستمع بذهول إلى وفد من آل وهابي المنكوبين بعميدهم. لم يكن يعرف شيئاً عن الأمر، وقد راهن أعضاء الوفد على الاعتبارات والحقوق المترتبة والمستندة على دعامات الصداقة الحميمة، فذكروا له الحقائق مثلما هي من دون تحوير أو تزوير، من أجل أن يجد المنفذ أو السبيل الذي يمكن أن يسلكه صديقه للإفلات من هذا المأزق البسيط الذي تحوّل على أيدي ثلاثة مفوضين مستجدين ومغمورين إلى كارثة كبيرة. لم يتورع نائب المحافظ عن التصريح عن دهشته واستغرابه واعتباره الأمر كله ليس أكثر من نكتة سخيفة.. ماذا تعني سيارة اسماك مهربة؟.. وإلى أين؟.. إلى بغداد.. يعني إلى داخل الوطن، هذا ليس تهريباً بالمعنى الذي يعرفه الناس.. هذا سخف.. ثم وسّع نائب المحافظ تصريحه.. ماذا تعني سيارة أسماك بالنسبة لوهابي؟.. وهابي ملك الصفاطين في العمارة والذي بمقدوره أن يسيّر أسطولاً من سيارات الأسماك، أسطولاً له بداية وليس له نهاية.. لكن ذلك الأسطول توقف فجأة حين رن جرس الهاتف وكان المتحدث في الطرف الآخر هو المحافظ الذي طلب حضوره إلى مكتبه فوراً. صافحه ثلاثة ضباط برتب عالية، وخاطبه المحافظ معرفاً بهم:

–إنهم ممثلون من الفيلق جاءوا يشكون أمراً إلينا

وشرح أحد الضباط بكلمات قليلة:

–نحن مسؤولون عن التموين. جنابكم يعرف أن وحدتنا تقاتل في الجبهة وإدامة التموين لهذه الوحدات أحد عناصر النصر، وربما أهمها، فالجندي الجائع من العسير عليه أن يقاتل وإن يواصل هذا القتال. والفيلق، أعني وحدات التموين

فيه تعاني من نقص في الأسماك منذ أكثر من إسبوع.

انقلبت حال وهابي رأساً على عقب في ذهن نائب المحافظ الذي فلتت الكلمات غصباً عنه:

–هذا ما فعله وهابي إذن؟

أغلق على المحافظ، وطلب من نائبه توضيحاً واقعياً شرح نائب المحافظ راوياً الأمر من البداية إلى النهاية.. وتساءل:

–ألا يعتبر عمل وهابي مساعدة للعدو ضد جيشنا؟

هكذا بدأ وهابي يهرول مسرعاً نحو تهمة الخيانة العظمى، لكن أحد الضباط أوقفه في منتصف الطريق إليها حين قال:

–لا.. ولكن هذا رجلاً جشع.. تاجر حرب

اقتنع الضباط الثلاثة أن تهريب الأسماك لن يحدث مرة ثانية. بعد خروجهم قال المحافظ لنائبه:

–وجه كتاباً إلى مديرية الشرطة.. أعني كتاب شكر لأولئك المفوضين الثلاثة المتفانين في عملهم والمدافعين عن القانون.

لم يكترث لآل وهابي حين عاد إلى مكتبه. صرفهم بلهجة باردة، وطلب منهم عدم العودة إليه. لأن القانون لا يجهل السبل التي يسير فيها.

كان ملوكي يستطيع أن يرمي نفسه شأن الآخرين في دوامات الحديث الدائرة بسرعة مدوخة حول مصير وهابي الذي غاص إلى أسفل السلم الاجتماعي، إلا أنه أعطى ظهره المحدودب لكل ما قيل ويقال في أبواب دكاكين السوق وفي مقاهي الماجدية. كان يغوص في عشقه، أو هو يغرق في ما يشبه نهراً من دون قاع. وجد أنه لا يستطيع الصمود طويلاً أمام عدم رؤية ساهرة. ورؤيتها لم تكن بذلك الأمر العسير الذي لا يمكن أن يحققه. لكن قلبه أو أي عضو في داخل جسده يريد أكثر من تلك الرؤية. بيد أنه سمع نداءً يتفجر في رأسه، نداء ما كان لملوكي القدرة على سماعه، أو حتى على فهمه فيما مضى من الأيام، نداءً واضحاً وصريحاً ومفهوماً يأمره بالكف عن التهور. وهكذا طأطأ رأسه وعاد باتجاه النهر ليطلق على ساحله أغنيته التي شغلت ذهن نجرس وصدعته. غير أن ملوكي انشغل بأغنيته كما لم ينشغل عاشق عاجز عن معرفة مشاعر الطرف الآخر، فملأ ساحل النهر والشوارع بها.

حين أخفق المفوضون الثلاثة وأصدقاؤهم في الليالي الثلاث التالية، في ضم

ملوكي الوحيد مع كأسه على طرف لسان الأرض إلى مجلسهم، حاولوا مد خيوط غير مرئية نحوه. كان علوكي أكثرهم تحرقاً إلى تحقيق هذا الأمر، فهو طوال تلك الليالي كان يتابع أغنية الصياد الصغير، لكنه عجز عن فهم أو حفظ كلماتها التي بدت له، في آخر الأمر، ضرباً من الألغاز أو الطلاسم التي يحتاج فكها وفهم معانيها إلى شخص له دراية وثيقة بلغة العفاريت والجن. صمد ملوكي لكل مناورات علوكي بهدوء ورباطة جأش أثارتا استغراب المفوضين الثلاثة وجلسائهم. الحقيقة أن ملوكي لم يحس أو ينتبه لتلك المناورات، فهو غاطس في انذهاله العاشق. مع ذلك، كانت طاقته تزداد حيوية وإتقاد وهو جالس في طرف لسان الأرض وربع القنينة أمامه. كان يعب خمرته سريعاً ويسكر سريعاً، وينهض ليمر بمجلس المفوضين العتيد من دون أن يحييهم، تماماً مثلما فعل في أول المساء حينما مر بهم ورأسه لم تثقله بعد أبخرة العرق. ثم طرأ أول تغيير في عشقه، فساهرة بدأت تأتي إليه حين يتمدد في الورشة بين القاربين المقلوبين.. تأتيه وتجلس قربه، على الرغم من عدم وجود شبر واحد من الأرض بين القاربين بعد أن يتمدد ملوكي بينهما.. تهدهده وتداعب شعره حتى ينام. اعتقد وآمن أن ما يجري ليس إلا حقيقة ولا علاقة له بأي وهم، لأنه حين يتمدد بين القاربين في بعض الليالي ومزاجه متعكر أو أبخرة العرق قد أطبقت على دماغه، فإن ساهرة لا تأتي. كانت تلك هي أقسى وأمض الليالي، وكان يمضي صباح اليوم التالي في مشاجرات ومناكدات لا تنتهي مع نجرس الذي يضطر في معظم الأحيان إلى ضربه، أو مطاردته إلى مسافة بعيدة عن الورشة.

ترتب على مجيء الحبيبة إلى الورشة ليلاً لهدهدته قبل أن ينام واجب العرفان بالجميل، أو مثلما يقولون في لغة المحبين: وفاء العاشقين. وهكذا دأب على النهوض من النوم في الفجر، يغطس في النهر عشرات المرات لكي يزيل دوار ليلة أمس من رأسه، ثم يرتدي بدلته التي أخذ لونها يبهت في بعض الأماكن، ويهرع ليقف في مقابل باب بيت الصياد الأعرج. لم يكن ملوكي يشغل مخه المنهوك من الكؤوس السريعة لليلة أمس في حساب كم من الوقت يمضي لتطل ساهرة على العتبة. هو، فقط، ينظر إلى ابتسامتها، ويسمع تحية الصباح التي توجهها إليه، بصوت يخاله قادم من وراء الأقمار والكواكب. ثم ترسله إلى السوق ليجلب لبيت الصياد الأعرج طعام الفطور، جبناً أو كباباً أو قيمراً. لا يهمه ماذا يحبون أن يأكلوا أو ماذا يكرهون، إنما يمضي بخطواته التي ما تزال غير متوازنة بسبب كؤوس الأمس، ويعود لاهثاً ليجد ساهرة شاخصة في

الباب والابتسامة معلقة في مكانها، ويكر قافلاً إلى الورشة حاملاً تلك الابتسامة وتلك التحية ليس في قلبه، بل في كل جزء من جسمه، كزوادة كفيلة بتأمين غذائه الروحي حتى منتصف النهار، حيث يعود ثانية ليتلقى بروح عطشى ومتلهفة للوداد ابتسامة وتحية منتصف النهار، وكان يشعر عندئذ أن روحه الملهوفة قد أتخمت بهذا الغذاء غير الملموس وغير المرئي، وفي هذا الوقت بالذات تنطلق أغنيته الغامضة الكلمات بصوته الخشن الأبح الذي يشبه طقطقة سقف خشبي قبل الإنهيار.

فيما بعد، في الأيام والأسابيع التالية، حيث تكررت ابتسامات وتحيات الفجر والظهر، بدا أن روح ملوكي المصابة بالطمع، قد تسلل إليها الملل من هذا الغذاء المتكرر كل يوم وبنفس الوتيرة. إضافة إلى أن شيئاً ما استيقظ في داخل ملوكي، لكنه أخفق في معرفته بالضبط، وأخذ ينازع روح ملوكي في مطالبها، عندئذ اندفع ملوكي جالداً حياته أمامه، ومجبراً إياها على اجتياز ممرات ومسالك لم يعرف مطلقاً أين تنتهي وأي المخاطر تحف بها. فهو لا يذكر لا الشخص ولا المكان ولا حتى الزمان الذي استمع فيه إليه، إلى ذلك الحديث الذي حبس الأنفاس وخلب الألباب، حول عظم الهدهد وما يحدثه من فوضى واضطراب في قلوب النساء، وكيف يجعل سحر ذلك العظم أصلب النساء قلباً وأشدهن جفاءً تقع في أحضان من يهواها بغمضة عين. ظل ملوكي ثلاثة أيام يبحث عمن يريه صورة للهدهد، فهذا الطائر نادر الوجود في مدينة العمارة، وكان كل يوم يمر أكثر من مرة بالهدهد المنتصب بعرفه على محمل أفرشة بيت عمه، والذي رسمه نجار منذ زمن طويل على ذلك المحمل الذي كان من ضمن أثاث زوجة عمه. حفر أوصاف صاحب العظام السحرية في دماغه، واستغرق وقتاً ليعد مصيدة صنعها بيديه من أغصان شجرة دفلى وسيور مطاطية وقطعة جلد لقذف الحصى. غاب عن الورشة من الصباح حتى العصر، وحين ظهر أمام نجرس كان منهوك القوى وشاحب اللون، فظن نجرس أن قطيعاً من الكلاب كان يطارده. كان ملوكي يتضور جوعاً فهو لم يأكل منذ الصباح، كما أنه لم يرَ الحبيبة ولم يسمع صوتها جلس على زورق مقلوب وطلب سيجارة من نجرس.

–أين كنت طوال هذا اليوم؟

لم يجب.. بعد نفسين أو ثلاثة سأل نجرس:

–هل صحيح يا نجرس أن عظم الهدهد يجلب محبة النساء؟

نظر نجرس إليه باستغراب.. أجاب؟

–هكذا يقولون.

–إذن، أنت لم تجرب ذلك؟

–ما حاجتي لعظم الهدهد؟ ثم.. أنت أيها الجرو الأسود، أين ستجد هذا العظم؟

قال ملوكي بعد أن امتص نفساً عميقاً من سيجارته:

–في جيبي.

سأله نجرس بدهشة:

–ما هو الذي في جيبك؟

–الهدهد.

أخرج هدهداً ممزق البطن من جيبه. كان رأسه المتوج بعرفه يميل إلى كل جانب يديره إليه ملوكي تعرّف عليه نجرس وهو مايزال في يد ملوكي. قال نجرس بوجل:

–إخفه يا سليل الكلاب السائبة.. لا تدع أحداً يراه.. سيقتلوننا ليستولوا عليه.. أين عثرت عليه أيها الأحدب الأسود؟

–في البساتين.. هناك الكثير منه.. ينبغي أن تساعدني يا نجرس وتحدد لي العظم السحري من بين عظامه؟

احتج نجرس

–هل قالوا لك أنني كنت أمارس السحر؟

انفجر ملوكي غاضباً:

–أيها الصبيّ النجس.. ألا يمكنك أن تساعدني ولو مرة واحدة؟

حدق المندائي فيه بدهشة.. سأله:

–هل وقعت في حب فتاة يا ملوكي؟

وناح ملوكي:

–نعم.. ولا تسلني مَنْ هي.. ساعدني في إيجاد ذلك العظم يانجرس .

فكر نجرس قليلاً ثم قال:

–ليس كل يوم تحصل فيه على هدهد، سأذهب الليلة إلى الشيوخ المندائيين فربما لديهم معرفة بذلك العظم.

–سأرافقك.

–سأذهب وحدي، إنهم لن يتحدثوا بحضورك.

قر رأي الشيوخ المندائيين على أن أحداً من القدامى لم يحدد عظماً معيناً من عظام الهدهد، وإن كل عظم من هذا الطائر له نفس القدرة السحرية لبقية العظام، وإن الرأي الحكيم هو أن تجمع كل عظام الهدهد،وبذلك يُحفظ السحر من دون نقصان. أزال نجرس اللحم الذي تيبس فأصبح قاسياً، عن العظام بشفرة حلاقة غير مستعملة. ثم لف العظام بعناية بقطعة قماش بيضاء نظيفة، وخاطها وأعطاها لملوكي قائلاً:

–لا تجعل أحداً يعرف بأمرها.. إنها كنز ومراد جميع الرجال.. لن يتورعوا عن قتلك لكي يحصلوا عليها.. هل فهمت كلامي؟

أخرجت له عظام الهدهد في صباح اليوم التالي المفوض عدنان بدلاً من شقيقته ساهرة. خرج له بملابسه الرسمية، إذ كان قد دخل للتو إلى البيت بعد أن أنهى واجبات المفوض الخافر لليلة أمس. دخل في اللحظة التي استدار ملوكي ليدخل الزقاق. طرق ملوكي الباب خلافاً لعادته وخلافاً لما يجري صباح كل يوم، فقد أمدته عظام الهدهد النائمة في جيبه بشجاعة لم يتذكر إنه كان يمتلكها فيما مضى. كان المفوض عدنان ما يزال في المجاز حين سمع الباب يُطرق.. عاد ليفتحه فوجد أمامه ملوكي الذي قال من دون أن يحييه:

–أين ساهرة؟

حاول المفوض أن يعرف ماذا يريد من أخته في الصباح الباكر هذا، لكن ملوكي أعاد السؤال بلهجة جافة. وضعت ساهرة بظهورها إلى جانب أخيها حداً لكل ما يمكن أن يحدث لاحقاً بين الاثنين رنا إليها بنظرة حالمة، وابتسمت له ابتسامة ناعسة، ثم ناولته صحناً ونقوداً، وحددت له نوع الفطور الذي ينبغي عليه أن يجلبه بسرعة لئلا يبرد: كباباً وطماطة مشوية. مضى ملوكي بخطوات مسرعة باتجاه السوق. نظر المفوض عدنان إلى أخته بعجب، وسألها:

–إذن، جعلتي من الأحدب الأسود خادماً لك.؟

قهقهت ساهرة وهي تسير وراء أخيها نحو داخل البيت. غير أن المفوض عدنان، رجل القانون الذي يتمتع بحساسية مفرطة تجاه ما يجري حوله، لم تفته الابتسامات الحالمة والناعسة التي تبادلها وأخته، فكتمها في نفسه، لأن فكره مشغول مثلما هما مشغولان فكرا المفوضين وليد وجعفر. استرجع ما جرى في

سوق الماجدية عصر أمس، وكيف عامل القصاب أحمد نوري المفوضين وليد وجعفر بذلك الأزدراء والرعونة، بذلك التبجح وعدم الكياسة، ليثير إعجاب امرأة جميلة كانت واقفة في باب دكانه.. حين استرجع كل ذلك اعتراه نفس الإحساس الذي اعتراه عندما أمسك وهابي بأعلى قميص وليد في باب المركز وضربه عدة مرات بالحائط. مضغ المفوض عدنان شفته السفلى وهو يتمدد في السرير.

لم تتحقق توقعات الناس في السوق حتى بعد ثلاثة أيام من ذلك الحادث، ولم تتحقق في الأيام الخمسة التي تلت تلك الثلاثة.. توقعوا أن المفوضين الاثنين اللذين هزأهما أحمد نوري لاعتراضهم على ربع كيلو غرام اللحم الذي باعهما إياه عامله، سيسعيان للانتقام سريعاً. ثم اقتنع الناس في السوق أن هذين المفوضين مضغا الإهانة وابتلعاها بسرعة، ثم اختفت الحادثة من أذهان رجال السوق أنفسهم، إذ أن الكثير من الحماقات يمكن رميها خلف الظهور، إلا وهابي وآل وهابي الذين كانوا يرون بعيون سليمة البصر المصير المظلم المقدر لذلك القصاب التعس، القصاب الذي كان لسنتين خلتا رجلاً لا يملك الكثير الذي يجعله يضع ساقاً فوق الأخرى حين يبدأ الكلام. انفتحت أبواب الرزق على مصراعيها أمامه، فوسع دكانه وبطنّه بالبلاط الأبيض، ورأى الناس المجمدات الكهربائية ومكائن فرم اللحم. بعد ستة أشهر أصبح يمتلك معظم دكاكين القصابين في سوق الماجدية. ثم أصبح مورد لحوم للمستشفيات. وحين اندلعت الحرب أصبح أحد الموردين للفيلق، وبات رجلاً ذا نفوذ وذا مال، وبدأت السيارات الخاصة من جميع الأصناف والألوان تقف في باب محله لم ينس أنه كان إلى وقت وجيز قصاباً يتحلق المشترين ليقفوا أمام دكانه، لذلك لم يترك ملابس العمل ليزهو ببدلات أنيقة، إنما ظل يرتدي ملابسه القديمة الملطخة. ببقع الدم، ويذهب بنفسه مع أبقاره وعجوله وخرافه وماعزه إلى المجزرة، مشرفاً على ذبحها وحريصاً على وجود الختم البنفسجي للطبيب البيطري مطبوعاً على ذبائحه مؤكداً سلامتها من الأمراض، وهذا يعني أن ذبائحه قد مرت من تحت بصر ودراية السلطات الصحية البيطرية.

لكن المفوضين الثلاثة قادوه إلى التوقيف، إلى نفس المكان الذي شغله وهابي قبل شهور. وإذا كان وهابي قد هاج وعربد وهدد بأعلى صوته، فإن أحمد نوري ظل مطأطأ الرأس والدموع تسيل من عينيه، لأن المفوضين الثلاثة داهموه ومعهم الطبيب البيطري ومساعدوه وهو يذبح الخراف والأبقار والعجول خلف سياج الملعب. كان هو وعماله قد أوجدوا مجزرة خاصة بهم بعيدة عن الرقابة

الصحية للقانون. إضافة إلى أنهم وجدوا معهم ختماً وحبراً بنفسجياً مشابهين لختم وحبر الحكومة. كان كل هذا يمكن طويه وغفرانه باعتبار أن الرجل قد أغرته نفسه باللعب قليلاً وراء ظهر القانون، وكان مثل هذا الغفران شائع بين قاطني الماجدية، لكن السلطات الصحية أثبتت أن معظم الذبائح كانت حيوانات مريضة، وأبدت تلك السلطات شكوكاً قوية حول البعض منها وبإنها كانت ميتة قبل الذبح بوقت قصير، وهكذا ضجت الماجدية وهي ترى تلك السلطات تحرق الذبائح، جميع الذبائح التي ضبطتها وراء الملعب، في وسط السوق. وثارت ثائرة الناس:

–إذن، كان يبيعنا الفطائس لنأكلها.

ارتفع قدر المفوضين الثلاثة في عيون قاطني الماجدية واعتبروهم المنقذين الغيورين على صحة العباد. ثم مر شهر وضع فيه المفوضون الثلاثة قفازاتهم الحريرية في قبضات أيديهم، وكانت لكماتهم من نوع الضربات القاضية. كان مأمور المركز يزداد دهشة كل يوم لهذا الخليط العجيب من باعة الفواكه والأسماك والخضروات والصيادين الذين أخذوا يدخلون التوقيف في الصباح، ويُطلق سراحهم بكفالات مضمونة في المساء أو في اليوم التالي. خلال ذلك الشهر، رصّن المفوضون الثلاثة مراكزهم الاجتماعية والقانونية، وبدا الجميع يقف لهم عندما يمرون راجلين أو في سيارة الشرطة. وعلى الرغم من الضربات القاضية لقفازاتهم الحريرية، ظلت الابتسامات في وجوههم، والكلمات الناعمة السلسة فوق السنتهم.

ومثلما أدار ملوكي حدبته أو ظهره المحدودب لوهابي وما دار حوله من لغط شغل قاطني الماجدية فترة من الوقت، أدار ظهره أيضاً للقصاب المنكود الحظ، لم تكن تهمة تلك السمعة الحسنة التي هي ضرب من الفضيلة والتي أضيفت إلى سمعة المفوضين الثلاثة كرجال قانون عملوا ويعملون من أجل الصالح العام. بل لم يكن ليهتم أو يفكر حتى في التعبير عن امتنانه لهؤلاء المفوضين الثلاثة، مثلما قام به الآخرون من إزجاء كلمات الشكر أو مصافحتهم بحرارة، لا لأن ملوكي لم يشتر لحماً من أي قصاب طوال حياته، ولا لأنه لا يؤمن بالصالح العام، بل لأنه غارق هو وعظام هدهده حتى منتصف أنفه في وجده، في عشقه الذي يجهل لحد الآن، كيف يجعله يسير متوازناً مع خلجات قلبه في طريق واحد سوي وخالٍ من كل ما يمكن أن يرهق روحه. لكنه، هو ملوكي نفسه، لم يكن ليعرف أنه خلال بحثه عن سعادة العشق بمساعدة عظام الهدهد، قد وقع في طريق المفوضين الثلاثة الذين أكملوا منذ زمن قصير بناء قلعتهم القانونية المتألقة البهية والقاسية

دونما رحمة. وملوكي ليس بذلك الفتى الأبله، الفتى الذي يمكن سحب قدميه إلى أفخاخ في الطريق بيسر وسهولة، غير أن ولهه، غير أن عشقه أسقط ستاراً سميكاً من الغفلة على توقد ذهنه. تلك حقيقة لم يرد أن يعترف بها، أو هو لم يلتفت إليها أبداً، لأنها كانت تجري في أشد الظلال كثافة لعشقه.

حل المساء، يعني حل أوان الشراب الذي يجعله يحلق بين السحاب وحيداً مع طيف الحبيبة حيث لا أشجار يحط عليها، وحين ينفث الشراب أبخرته الثقيلة المدوخة، يعود وحيداً من دون طيف، ليتمدد بين قاربين في ورشة نجرس مهدود القوى ومبهور الأنفاس، منتظراً الطيف مرة ثانية ليهدهده حتى ينام. مر حاملاً مؤونة حفلته مثلما مر في أمسيات الليالي الماضيات بمجلس المفوضين الثلاثة وجلسائهم. توقف كما لو أن أحدهم أمسك به بقوة ليس بوسعه مقاومتها، أو أن قوة غامضة غير مرئية سمرته في مكانه. كان مكان المفوضين الثلاثة فارغاً خالياً منهم ومن جلسائهم توقع أن أمراً قد وقع، خاصة أن قضية القصاب قد بلغت أوج تطوراتها. غير أن اهتمام ملوكي كان يحوم حول مكان آخر، مكان ما كان ليهم أحد غيره، وما كان لأحد أن يعرف به أو يحيط بأسراره. واصل تقدمه باتجاه طرف لسان الأرض. مع ذلك، شعر أن شيئاً ما مفقوداً من حفلته، من عالمه الليلي الذي تعوّد على تكراره منذ التفت أنشوطة العشق حول قلبه. بدا له، وهو يجلس متكئاً إلى جذع النخلة، أن لسان الأرض موحشاً مهجوراً من دون أولئك المفوضين الثلاثة وأصدقائهم فجأة، شعر أنه بحاجة إلى قهقهاتهم التي كانت تنفجر بين فترة وأخرى، إلى أصواتهم التي ترتفع في بعض الأحيان، على الرغم من أنه لم يهتم لها أو يستمع إليها أبداً. لكنه افتقدها هذا المساء. تمنى لو أنه يأتون حالاً. ثم بعد لحظات قليلة نسى ذلك كله، كما نسى أيضاً كل ما حوله، فقد ابتلع ما في كأسه الأولى كعادته، حتى القاع.

حالما وضع الكأس في مكانها رآها، في الوهلة الأولى ظن أن تأثير الكأس الذي تصاعد سريعاً جعله يتخيل ذلك، لكنه حركها بسباته فتحركت إلى الأمام قليلاً، كانت صورة شاب وشابة، عاشق وعاشقة يحتضنان بعضهما. رفعها من الأرض بسبابته وإبهامه، واكتشف أنها ليست صورة فقط، بل هي رسالة. في الضوء الخافت فوق لسان الأرض تفحصها مقرباً إياها من عينيه، قلبها على ظهرها، فرأى مظروف الرسالة واضحاً. فكر: صورة حبيبين ملصقة على مظروف رسالة.. أهي لي؟.. قلبها فطالعه الحبيبان اللذان أقتطعا من مجلة. ثم قلبها على وجهها الآخر، وفكر ثانية وهو يسمع دقات قلبه في صدغيه، ليس على مظروفها

كتابة، وهي مغلقة وثقيلة، إذا لم تكن لي، إذن، هي لمن؟.. وعلى الرغم من عدم تأكده فإنه دس الرسالة في جيب بدلته الجانبي، دسها عميقاً حتى لامست عظام الهدهد، أحس بالبلبلة تجتاح رأسه، فهو ليس من أولئك الذين يميلون إلى التفكير الطويل، بل هو يبحث دائماً عمن يفكر مثل هذا التفكير بدلاً عنه. تمنى في تلك اللحظة بكل جوارحه أن يعثر على مثل هذا الشخص.

انتشله من تمنيه الذي آمن أنه لن يتحقق أبداً، مجيء المفوضين الثلاثة وأصدقائهم جاءوا تتقدمهم ضحكاتهم وكلماتهم الساخرة الفكهة، واتخذوا مجلسهم في مكانهم المعتاد، كما لو أنهم لم يروا ملوكي الجالس في طرف اللسان. وخلافاً لما اعتاد عليه فتح أذنيه لأحاديثهم، لكنه لم يسمع شيئاً مهماً، فهم لا يتحدثون بصوتٍ عالٍ إلا في فترات متباعدة، ترتفع أصواتهم فجأة، ثم تنخفض بعد ذلك بسرعة، لتصبح همساً مرة ثانية.

شعر ملوكي أن شيئاً غريباً طرأ عليه، فهو لم يعد يطيق العوم في وحدته منفرداً، إنه يتمنى أن يتحدث، أن يثرثر مع شخص ما، حتى لو كان قادماً من كوكب آخر. تمنى لو جاء أحد منهم إليه، علوكي مثلاً، فربما سيمهد أمامه الطريق لكي يخرج من معمعة الرسالة المستقرة في جيب بدلته الجانبي. تمنى لو أنه كان يعرف القراءة والكتابة، وكم أسف لأنه لم يذهب إلى المدرسة مثلما ذهب إليها الآخرون من أقرانه. اكتشف ملوكي أن أمسيته هذه قد امتلأت بالتمنيات، وعجب من ذلك، فهو لم يكن معتاداً أن يتمنى شيئاً خلال حياته الماضية. قبل أن يبتلع كأسه الثانية رأى علوكي يقف فوق رأسه. لم يرجع الكأس إلى مكانها، بل ظل ممسكاً بها قرب شفتيه، وناظراً إليه بعينين لا تطرفان.

–أين كنت يا ملوكي طوال العصر؟

لم يجبه، كان ينظر إليه بأعصاب هادئة جداً، فقلبه استعاد بسالته التي فقدها منذ اثنتي عشرة سنة. أضاف علوكي وهو يجلس على كعبيه قريباً منه.. أضاف هامساً:

–فتاة كانت تبحث عنك.

شعر أن العرق أخذ يغلي في كأسه، ومع ذلك كرع نصفه معيداً الكأس إلى مكانها بيد اعتراها الارتعاش. سأل وحرارة العرق ما تزال في فمه:

–ماذا أرادت؟

أجاب علوكي وهو يبحث بعينيه في الأرض أمام ملوكي:

-لا أدري.

ثم أضاف غامزاً ملوكي بإحدى عينيه:

-مَنْ يعرف ماذا يدور بينكما؟.. بحثت عنك ولم تجدك حتى إنها جاءت إلى هذا المكان.

كادت تفلت صرخة من ملوكي، ومن دون إرادة منه امتدت يده وتحسست الرسالة في جيب بدلته الجانبي، وطفت ابتسامة سريعة في وجه علوكي، واختفت من دون أن يلاحظها ملوكي، ثم تناول كأسه من الأرض وكرعها دفعة واحدة. احتقن وجهه ذو السمرة الداكنة بحمرة خفيفة لم تفت على علوكي.. قال وهو يمضغ قبضة من الباقلاء المسلوقة:

-هل أذهب إليها الآن؟

-إذا كنت مجنوناً فاذهب إليها.. ماذا تعتقد أنها ستفعل وهي تشم رائحة العرق تفوح منك؟

نهض تاركاً إياه مع يده التي لم تتوقف عن تحسس الرسالة في جيبه. تقاربت الرؤوس حول علوكي الذي عاد ليجلس في مكانه.. همس مبتسماً:

-الرسالة في جيبه.

←←

-7-

ازدهر مجلس الفاتحة ثانية في اليوم الرابع، وازداد ازدهاراً في اليوم الخامس، إذ عاد المعزون لقراءة سورة الفاتحة على روح ملوكي، ثم عادوا مرة ثالثة، ودفع أكثرهم المال، وسُجلت أسماؤهم في الدفاتر الجديدة التي يحملها المفوضون الثلاثة. كان أكثر القادمين للسرادق من فقراء الماجدية والجنود.

وظهرت الخراف والعجول أيضاً منذ ضحى اليوم الرابع. اختفى مقرئ القرآن وحل بدله مسجل صوت ضخم، جعل الناس في الجوار، وخاصة قاطني صف البيوت المطل على السرادق، يصرخون لكي يتفاهموا. حل جاسم بدلاً من أبيه جحيل في الأريكة الأولى في باب السرادق لتقبل تعازي الناس. شعر جاسم بالارتباك أول الأمر، وكاد يفر عندما تقدمت نحوه مجموعة من المعزين. قال جاسم فيما بعد، في جلسة ليلة نفس النهار في مؤخرة السرادق، قال للمفوضين الثلاثة ولأخوته الثمانية ولعلوكي ولعلي بن وحيد ولعلي بن حسين ولعلي بن موسى ولجندي لا يعرفه شاركهم جلستهم وحزنهم وشرب قليلاً من جميع كؤوسهم، قال، لا ليس الارتباك ما شعر به، بل بسقوط الخوف والكرب في قلبه، ليس لابن عمه الفقيد، إنما لنفسه هو جاسم لجهله بأية كلمات يرد على كلمات المعزين التي انطلقت من الأفواه سريعة مثل طلقات مدفع رشاش، وما كان بمقدوره هو الجاهل بكيفية رص مثل هذه الكلمات وبهذه السرعة والإتقان، أن يلحق بها ويجمعها، يعني أن يحيط بها كلها من دون أن تفلت منه واحدة أو أكثر. وجد نفسه في البداية، كما أكد، يحضن المعزين بقوة، ويهمهم بكلمات غير واضحة وغير مفهومة، وهو لم يعرف لحد الآن، أي في هذه اللحظة التي يتحدث فيها لجلسائه في مؤخرة السرادق، لماذا كان وجهه ينضح عرقاً غزيراً. اعتقد المعزون أن دموع جاسم على ابن عمه أخذت تتدفق ليس من عينيه فقط، بل من كل مسامات وجهه، فطلبوا منه والدموع تجول في عيونهم أن يكف عن هذا البكاء الغريب لئلا

يقتله. ثم أكد لجلسائه مرة ثانية، إنه هو جاسم أمضى ثلاثة أرباع عمره مستمعاً إلى لغات أجزاء ماكنات السيارات، وكان يفهم ما تقوله تلك الأجزاء بلغاتها المتعددة، كان يعرفها حين تصوّت بلغة العافية، كما كان يعرفها حين تستغيث أو هي تتحشرج في نزعها الأخير، لكنه أخفق في الإحاطة بلغة البشر المعزين، فقد استمع إلى كلمات متشابهة جافة وخالية من الأنين، تدفقت من جميع الأفواه، وهو الذي كان يعتقد أن كلمات الحزن مخيفة، لأنها مؤلمة وقادرة على ثقب الصدور والقلوب. وهكذا وجد، هو الجاهل بهذه اللغة، في اللحظات الأخيرة التي كان يوشك فيها على الفرار، أن الآهات والأصوات المبهمة أكثر بلاغة من كل تلك الكلمات المرصوصة بإتقان، فتقبل التعازي بهمهمات حيوان.

ومثلما ازدهر مجلس فاتحة الرجال، ازدهر عزاء النساء أيضاً. استقبلت النسوة تمديد العزاء إلى سبعة أيام بحماسة تضارع حماسة استقبال خبر مفرح أو عيد مرتقب. ارتفعت أصوات ندبهن وازدادت ضربات صدورهن وزنودهن قوة وعدداً. ثم توجهت إلى هذا العزاء نسوة قدمن من أماكن بعيدة من المدينة، بل وصلت أفواج كثيرة من المدن القريبة والبعيدة، لتتكاثف سحب الحزن حول روح ملوكي. كان نجرس كثيراً ما يتوقف عن عمله في الورشة ليصيخ السمع للأصوات النادبة، المبحوحة، والمثقلة بآلام مئات السنين التي تعرضت لها وتحملتها وأورثتها أجيال لبعضها من نسوة هذه الأرض. ثم يعود نجرس إلى عمله بعد أن يردد نفس جملته عندما توقف في المرة السابقة:

–كل واحدة تندب موتاها.

مع ذلك، كان نجرس يحس بارتياح غريب يغوص من بلعومه ببطء عجيب حتى يصل كعبي قدميه، عندما ترتفع أصواتهن وتمتزج في إيقاع خالٍ من العويل المباشر والخشن، وهن يدرن في حلقات متداخلة مع بعضها، إيقاع لا يبطئ ولا يتسارع يضبطنه بدق أقدامهن بالأرض، وكان الحزن يمطر من كلماتهن الموقعة من نشيدهن الباكي الذي يودّعن فيه أمواتهن ونادبات حظهن المدحور. كان نجرس حين يصل الندب الموقع ذروته، يرمي أدواته وينخرط في بكاء طويل على ملوكي.

بدا للناس في الجوار، وكذلك للقاطنين بعيداً على امتداد وعمق شوارع الماجدية، بعد أن تم تمديد مجلس الفاتحة إلى سبعة أيام، أو ربما أكثر، فهم غير متأكدين من قرارات المفوضين الثلاثة في هذا الشأن، بدا لهم أن روح ملوكي سلكت طريقاً غريباً في تصرفها، فهي أشبعت الفقراء والجنود والغرباء الذين طرقوا

المدينة أول مرة حيث لفظتهم الحافلات في محطة السيارات الرئيسة، وساقت–روح ملوكي– الأغنياء والموسرين إلى السرادق، ليسجلوا أسماءهم في دفاتر المفوضين الثلاثة. ثم اكتشفوا، منذ اليوم الخامس لمجلس الفاتحة، أن روح ملوكي تميل إلى الأذى والتخريب. من بين أول من اكتشف ذلك، كان باعة الخضروات والفواكه والقصابون وباعة السمك والخبز وغيرهم من الكسبة الذين يعج بهم سوق الماجدية. إذ ما عادوا يبيعون ما يعرضونه في سلالهم وفي واجهات دكاكينهم وفي عرباتهم، مثلما كانوا يبيعون قبل أن تُقبض روح ملوكي. فالنسوة تركن بيوتهن وذهبن ليندبن ويلطمن ويهيجن أحزاناً قديمة نساها الجميع ما عداهن. وهكذا ظلت معظم بيوت الماجدية بدون طباخات، فاضطر الأطفال والصبيان، ومن دون اعتراض الآباء، بل ربما بتشجيع منهم، أن يملأوا الفراغات التي تركتها أمهاتهم، فهرعوا بقدورهم القصديرية إلى حيث القزانين، جالبين ليس الرز والمرق المملوء لحماً فقط، بل الخبز والفجل والرشاد والكرفس والحلبة، وفي بعض الأحيان يجلبون كميات كبيرة من حلوى الشعرية وحلوى الدقيق والمحلبي واللبن. حتى أصحاب المقاهي، على الرغم من قلة عددها في الماجدية، شكوا من الهجوم الكاسح لروح ملوكي على مقاهيهم، فكبار السن من الرجال وجدوا في مجلس الفاتحة مكاناً لا يضاهيه أي مكان في طول المدينة وعرضها وليس في الماجدية فقط، لشرب الشاي والقهوة وتدخين السجائر وتناول وجبات الأكل المستمرة من الضحى وحتى الساعتين الأخيرتين قبل منتصف الليل. إضافة إلى لقاء الرجال المسنين القادمين من محلات المدينة الأخرى، أولئك الرجال الذين يحفظون أحداث وتواريخ الأزمنة الماضية، البارعين في روايتها واستخلاص المغازي والعبر منها. ولو كان المفوضون الثلاثة يسمحون بلعب الدومينو والطاولي في السرادق، لترك الشبان المقاهي أيضاً وركضوا بأقصى ما يمتلكون من طاقة، ليشغلوا أماكن تحت أقواس السرادق قبل أن يقوم غيرهم باحتلالها. وهكذا بدأت اللعنات تنطلق من السوق، ومن المقاهي لتطارد روح ملوكي. كان اللاعنون حريصين على إطلاق تلك اللعنات بصوت منخفض كما لو أنها ضرب من الخروج على القانون الذي لا يتساهل المفوضون الثلاثة معه. على الرغم من تلك اللعنات المهموسة، ظلت العربات المدفوعة باليد، والعربات العالية التي يجرها حصان منفرد، تقدم إلى مجلس الفاتحة محملة بشوالات مليئة بالباذنجان والبطاطا والقرع الأبيض والباميا، وبسلال عديدة من الطماطة والخضار الطازجة، وعربات خاصة للرقي والبطيخ. كان أصحاب علاوي الخضروات وبائعوا الجملة يرسلون هذه العربات في ساعة الضحى، من أجل أن يساهموا في جلب الرحمة لروح ملوكي. ثم أن تجار

المواشي والقصابين واصلوا مساهمتهم في إرسال الخراف والماعز والعجول وقطع اللحم الكبيرة. كما جدد المفوضون الثلاثة طلباتهم إلى المسؤولين في المحافظة للحصول على تعيين الشهيد من الشاي والقهوة والسكر والسجائر والرز والدقيق وزيت الطعام، ولم يوافق المسؤولون على حصة شهيد واحد، بل منحوهم حصص ثلاثة شهداء، لا بسبب سمعتهم الطيبة في ملاحقة المتلاعبين والنصابين، إنما لذلك السرادق الذي قام بإطعام عوائل الفقراء والجمهرة الغفيرة من الجنود. وهكذا امتلأت بيوت الصف الأول المطل على السرادق بشوالات الخضراوات، وبالطباخات النفطية الكبيرة التي نيران رؤوسها تدوي تحت قدور المرق الكبيرة من الضحى وحتى الساعة الأخيرة قبل منتصف الليل، وخلال كل هذا الوقت الطويل، تخرج معاجن الخبز الملأى حتى حافاتها بأنواع المرق وقطع اللحم التي مازالت ممسكة بالعظام. كان القزانان الكبيران كثيراً ما يجددان محتوياتهما من الرز واللحم، وكان الطباخون يضطرون في تلك الساعة الأخيرة، بعد أن ترفض بيوت الجوار صواني الطعام المرسلة إليها لأنه لم يبقَ لديها سوى خزانات الملابس لتضع فيه هذا الطعام، يضطر أولئك الطباخون إلى رمي الطعام الفائض وراء مخزن الأسماك الكبير من جهة البستان. إضافة إلى أن صواني الرقي والبطيخ التي تقدم للمعزين بين فترات الطعام، وبشكل مستمر من دون انقطاع، تركت وراءها في بيوت الصف الثاني تلالاً من القشور سرعان ما قام بنقلها الأطفال والصبيان إلى حيث تلال الرز والمرق والعظام. بعد وقت قصير، قصير جداً فاق توقع الطباخين أمام القزانين والمفوضين الثلاثة والمعزين الأصدقاء الذين كانوا يؤدون واجبات الخدمة في السرادق، رأى كل هؤلاء ومعهم أيضاً المعزون الغرباء الجالسون في السرادق، قطعان الكلاب السائبة المهرولة بهدوء والمتدلية ألسنتها، تدير رؤوسها نحوهم، نحو السرادق من دون أن تطرف عيونها، ومن دون أن تطلق نباحها، ومن دون أن تتعرض للطباخين وهي تمر من منتصفهم، ثم تدير رؤوسها لتتبع أنوفها نحو تلال الطعام وراء مخزن الأسماك. بدا الكثير من المعزين، وخاصة المفوضين الثلاثة، أن قطعان الكلاب السائبة تلك التي تجمعت من كل أنحاء المدينة، قد قامت بأفضل المواكب الجنائزية الحزينة المنظمة بدقة. وراء قطعان الكلاب مرت مجموعات عديدة من الحمير والخيول التي تجر عربات الحمل، مجموعات حكم عليها أصحاب السرادق بالغباء والبلادة، لأنها كانت تسير منفردة ومن دون نظام، غير أن ذلك الحكم الذي أطلقته نفوس غاضبة، لم تمنع تلك الحيوانات المتعبة المنهكة والجائعة من الوصول إلى ركام قشور الرقي والبطيخ.

فيما بعد، عندما تكرر مجيء قطعان الكلاب السائبة خلال الليالي التالية، من دون أن تغير من طريقة سلوكها وهي تمر بالسرادق وتجتاز الطباخين ثم تختفي في الظلمة وراء مخزن الأسماك الكبير، قال أحد أبناء جحيل في الفسحة التي صنعتها الأرائك المستعرضة على مؤخرة السرادق:

–كانت تنظر إلى السرادق بعيون لا تطرف.. كانت تنظر إلينا وألسنتها متدلية.. ماذا يعني كل هذا؟

أجابه شقيقه الكبير جاسم:

–لم تكن تنظر إلينا.. صحيح هي تنظر باتجاهنا، غير أنها لم تكن تنظر إلينا.

وضع الشقيق الصغير كأسه على الأرض أمامه وتساءل:

–إذن، تنظر إلى مَنْ؟

–كانت تنظر إلى روح ملوكي.

بذل المفوضون الثلاثة جهداً هائلاً للمحافظة على أعصابهم في ساعة ما بعد ضحى اليوم الخامس للمأتم عندما أعاد الجنود نفس المشهد السابق الذي قام به زملاؤهم المهرولون نحو سيارة بغداد والحقائب تتحرك بسرعة على ظهورهم. كادوا يجرفونهم معهم، وكادوا يسقطونهم أرضاً خلال اندفاعهم الهائج غير المتزن وغير الحذر من التصادم بالآخرين القادمين من الاتجاه المعاكس، الاتجاه الذي يأتي منه صوت المنادي عالياً وزناناً:

–بغداد.. بغداد..

راقب المفوضون الثلاثة حافلة الركاب الواقفة في الطرف الثاني للأرض الخلاء الممتدة بين السرادق وجسر الكحلاء. خلال ما كانوا يراقبون الجنود الذين تجمهروا في الباب الأمامي للحافلة متدافعين، صارخين ولاعنين وشاتمين بعضهم بعضاً، أتت حافلة أخرى، وقفت أمام الحافلة الأولى، وارتفع صوت مساعد السائق الذي نزل منها ووقف على الرصيف:

–بصرة.. بصرة.. بصرة..

ابتعد المفوضون الثلاثة بسرعة عن أماكنهم حتى لا تأخذهم موجة الجنود الثانية المنطلقة من السرادق، موجة تحركت بهياج عنيف، بعد أن تمتعت بفترة طويلة من الراحة والطعام والشراب والتدخين. ثم راقب المفوضون الثلاثة عربة ضخمة تحمل زجاجات كبيرة مليئة بعصير البرتقال ونومي البصرة والتمر هندي.

راقبوها صاعدة الرصيف ومستقرة في الأرض الخلاء قريباً من حافة الرصيف. لم يقلق المفوضون الثلاثة أو تنشغل أذهانهم بمن سيأكل ما يُطبخ الآن في القزانين وفي القدور الكبيرة على الطباخات النفطية في بيوت الصف الأول المطلة على شارع الجسر والمواجهة للسرادق، فالجنود حتى هذه اللحظة ما يزالون يعبرون الجسر قادمين من محطة السيارات، ليرموا أجسادهم المتعبة على الأرائك داخل السرادق. في منتصف النهار غص السرادق بالجنود والمسافرين المدنيين الذين قدموا إلى المأتم بعد يأسهم من قدوم الحافلات التي تنقلهم إلى مقاصدهم، إضافة إلى المعزين الذين أتوا في اليوم الأول ومازالوا موجودين لحد الآن، والشيوخ والمتعطلين عن العمل.

بوصول ستة جنود مع قصاعهم لأخذ الأكل لفصيل حراسة المستشفى العسكري الذي ترك تعيينات الجيش، أزف الوقت أو فهم الطباخون الإشارة الخفية لصب الطعام في الصواني الكبيرة للمعزين في السرادق . كما ظهرت جمهرة الأطفال والصبيان بقدورهم القصديرية كما لو أنهم كانوا مختبئين في الأزقة القريبة بانتظار ظهور جنود فصيل الحراسة. انتقلت صواني الرز المغطى بقطع اللحم الكبيرة إلى داخل السرادق، ثم تبعتها معاجن الخبز المليئة بالمرق حتى حافاتها. تم كل هذا بهدوء ونظام تحت إشراف المفوضين الثلاثة الذين أوقفوا، منذ اليوم الأول للمأتم، تجاوزات المعزين أثناء تناول وجبات الطعام على صواني الآخرين.

ثم حدث الذي كان المفوضون الثلاثة يخشون من حدوثه، فالمعزون المنهمكون بلقماتهم الأولى توقفوا عن المضغ فجأة. أصاخوا السمع للنداء القادم من الطرف البعيد للأرض الخلاء، والتقطت أسماعهم نداءين واضحين:

–كوت.. كوت..

–ناصرية.. ناصرية..

فكر المفوضون الثلاثة بما سيترتب على ترك الجنود لكل هذا الطعام. لا لأنهم سيخسرونه أو لا يجدوا مَنْ يستطيع أن يأكله، لكنهم فكروا بسمعتهم وبسمعة المأتم.. آمنوا في لحظة سخط مكتوم، سخط عاجز عن الانفجار في وجوه هؤلاء المعزين الجاحدين الذين سيطعنون المأتم بجحودهم في اللحظة الأخيرة، بعد تلك الكميات الكبيرة من الشاي والقهوة والسجائر، على امتداد وقت لا يمكن اعتباره قصيراً أبداً. آمنوا أن هذه إهانة صريحة وجارحة ومؤلمة حتى العظم، ليس لهم، فهم ليسوا سوى منظمين ومشرفين لهذا المأتم، إنما لروح ملوكي.

خلال ما بدأ الجنود بالنهوض أوقفهم صوت عسكري يحمل رتبة نائب

ضابط.. صوت حازم انطلق من رجل ما يزال شاباً، على الرغم من الشيب الكثير المتخلل لشعر رأسه.. أوقفهم وأجلسهم ثانية أمام صواني الطعام:

–ألا يمكن أن تضعوا في وجوهكم نظراً؟.. مَنْ يترك طعام المأتم المقدم من أجل روح إنسان؟.. أتريدون الوصول سريعاً إلى بيوتكم؟.. سنصل إلى تلك البيوت فهي ثابتة في مكانها ولن ترحل مثلنا من مدينة إلى أخرى.. واصلوا الأكل أيها الشبان الشجعان، ثم اقرأوا سورة الفاتحة على روح الفقيد، فغداً سنرحل مثله عن هذه الدنيا.

شعر المفوضون الثلاثة وهم يرون الجنود يعودون إلى أماكنهم ويواصلون الأكل الذي انقطعوا عنه، أنهم يرون روح ملوكي جالسة في صدر السرادق، جالسة ومبتسمة، خلافاً للأمس حين احتلت مكاناً منزوياً، عابسة وباكية.

ثم جاء ذلك الجندي الغريب الحامل كيساً من القماش مخروطي الشكل والمعقودة فتحته العليا بحبال بيض تربط قاعدته بقمته، لتصنع حمالة معلقة إلى كتفه. جاء بعد منتصف الليلة الرابعة، فوجد باب السرادق المصنوع من القماش مغلقاً بإحكام من الداخل. دار حول السرادق مرتين باحثاً عن منفذ آخر غير الباب الرئيس. وقف أمام باب السرادق وصاح:

–ألا يوجد أحد في الداخل؟.. أنا جندي متعب جاء من مكان في آخر الدنيا.. أنا أعلم أن شخصاً ما في الداخل.. رحمة لفقيدكم الميت، افتحوا الباب.. لا أريد سوى النوم على حصير، أو حتى على الأرض.. منذ يومين لم أنم.

نهض أولاد حجيل التسعة من نومهم الذي تظاهروا به، ظناً منهم أن جحيل هو الذي يحوم حول السرادق. كما نهض المفوضون الثلاثة من فوق الأرائك وكذلك جلساؤهم. سأل المفوض وليد هامساً:

–هل نفتح له؟

أجاب المفوض عدنان بنفس درجة صوت صديقه:

–إذا فتحنا له فإن العشرات من أمثاله سيأتون ليلة غد.

تساءل المفوض جعفر:

–هل نحوّل سرادق المأتم إلى مكان لمبيت العابرين؟

قال المفوض وليد حاسماً الموضوع:

–لندع هذا الجندي ينام هذه الليلة، ولن نسمح في الغد لأي شخص حتى لو

كان ضابطاً بالنوم في هذا المكان.

دخل الجندي الغريب. رمى كيسه على الأرض في مقدمة السرادق جاعلاً منه وسادة، ثم انهار بكامل بجسمه. وضع رأسه على كيسه وغط في النوم. ظن المفوض وليد أن هذا الجندي قد فارق الحياة، فهو لم يرَ طيلة حياته شخصاً ينام بهذه السرعة. لكن غطيط الجندي بدد ظنه. أعاد المفوضون الثلاثة وأبناء حجيل التسعة وعلوكي وعلي بن وحيد وعلي بن حسين وعلي بن موسى الزجاجات والكؤوس والصحون إلى أماكنها، مجتمعين مرة ثانية في الفسحة في نهاية السرادق. أطفأوا المصابيح الكهربائية في الداخل، لكي لا يراهم أحد من وراء قماش السرادق، واستعاضوا عن النور الكهربائي بنور خافت وشاحب لفانوس نفطي. بدوا في جلستهم الدائرية وقد حجب البعض منهم نور الفانوس الضئيل عما أمامهم من زجاجات وكؤوس وصحون، وحركاتهم البطيئة وأصواتهم الهامسة مثل لصوص أثناء وضعهم خطة للسرقة.

خلال جلسة الحزن في هذه الليلة، كف المفوضون الثلاثة عن البكاء لفقدانهم صديقهم ملوكي إلى الأبد مثلما كانوا يفعلون في جلسات الحزن لليالي الماضية. اكتفوا بذكر مناقب الفقيد، المناقب التي آمن المفوضون الثلاثة، أثناء جلسة حزن هذه الليلة، أن أحداً غير جدير بالاتصاف بها سوى ملوكي، ذكروا كلاماً عاماً جيداً، إلا إنه يصلح لوصف أي شخص، أي شخص على الإطلاق، سواء كان معروفاً لدى السامعين أم مجهولاً لديهم. ثم توقفوا عن الكلام وعن الشرب إذ حدثت حركة فجائية في السرادق خلفهم. نظروا من خلال الفراغات في متكئات الأريكتين، فرأوا الجندي الغريب جالساً ورافعاً وجهه ومتشمماً الهواء بأنفه.. قال المفوض عدنان هامساً:

–هذا الجندي يتشمم مثلما تفعل الكلاب.

نهض الغريب من مكانه وتقدم نحوهم، نحو جلستهم وهو ما يزال يستروح الهواء بمنخريه، ثم أطل عليهم من فوق متكأ الأريكة. نظر إليهم، ونقل نظره إلى الزجاجات ثم عاد ينظر إليهم. لم تربد وجوههم أو في الأقل يسود الارتباك حركاتهم كنوع من الشعور بالذنب، إنما بادلوه نظرات باردة خالية من أي احتجاج أو غضب أو إحراج. قال وهو ما يزال يطل عليهم من فوق متكأ الأريكة من دون أن تطرف عينه أو يختلج صوته:

–سمعنا الكثير عن مأتمكم هذا ونحن في مواجهة العدو، والجنود في وحدات الجيش اعتقدوا أن هذا المأتم يخص رجلاً يشبه الأولياء، لكن لم يخطر في بالهم

إنكم تقدمون العرق فيه أيضاً.

قال المفوض جعفر بهدوء:

–لم يقدم أحد العرق في هذا المأتم، ومَنْ يفكر أن يفعل ذلك سنطلق عليه الرصاص.

تساءل الجندي الغريب:

–إذن، ماذا يعني هذا الذي أمامكم؟

أجابه المفوض جعفر:

–نحن أهله وأصدقاؤه.. لم نجد ما ينسينا الحزن عليه سوى هذا السم.

قال الجندي الغريب:

–ليكن الله في عونكم.. هل يمكن أن أحصل على كأس أو كأسين؟

قال المفوض عدنان:

–لن تحصل على قطرة، فقد جلبنا ما يكفينا فقط.

قال الجندي الغريب:

–أيقظتني الرائحة.. كنت متعباً غاطاً في نوم متعب أيضاً.. لكن تلك الرائحة أيقظتني.. تلك الرائحة؟.. أتفهمون؟.. يجب أن يتنازل بعضكم عن كأس أو كأسين.. لن أستطيع النوم ثانية.. تلك الرائحة، أتفهمون؟.

لم تكن نبرة صوته غاضبة ولا جافة، بل هادئة ومتزنة وخالية من الطلب المبتذل الذي يدفع الآخرين نحو الاشمئزاز والسخط. دخلت كلماته قلوب أولاد جحيل التسعة، دخلت قلوب المفوضين الثلاثة، ودخلت قلوب علوكي وعلي بن وحيد وعلي بن حسين وعلي بن موسى، وكانت قادرة على دخول دزينة أخرى من قلوب رجال لو كانوا حاضرين أيضاً. قال علوكي موجهاً كلامه للجندي الغريب:

–أيكفيك ربع قنينة؟

نظر الجميع إليه باستغراب، وسأله المفوض وليد:

–من أين ستأتي بهذا الربع؟

–اشتريت هذه الليلة ربعاً زائداً، فربما أراد أحدنا المزيد.. وهذا الفتى قدم إلينا، فهل أحرمه منه؟

سأله المفوض وليد:

www.alkottob.com

–هل تعطيه له مجاناً؟

–لا.. سيدفع لي.

ابتسم الجندي الغريب وقال:

–سأدفع.

كشف الجندي الغريب منذ اللحظات الأولى عن شخصية منظمة ومفعمة بالحماسة لكل ما يمت إلى النظام غير المبالغ به، بالإضافة إلى النظافة التي تبدو في معظم الأحيان ثقيلة الوطء في عيون وعقول أبناء جحيل التسعة. تركهم بهدوء مثلما جاء إليهم بهدوء، أخرج من كيس قماشه الخاكي المخروطي دشداشة وفردتي نعال ومنشفة. خرج من السرادق وهبط الجدار الخرساني المائل، وعلى الساحل وضع جميع ملابسه بنظام، ربما تعلمه في الجيش، ثم غطس في النهر. عاد إليهم جافاً لا يقطر شعر رأسه ماءً، ومرتدياً دشداشته النظيفة. نشر المنشفة وجواربه على متكأ إحدى الأرائك في مقدمة السرادق، رتب بنطلونه وقميصه الخاكيين ووضع حذاءه العسكري في كيس من النايلون بألوان عديدة، ثم أدخل ملابسه وحذاءه في كيس القماش الخاكي المخروطي وشد عقدة حباله.

بنفس الهدوء انضم إلى الجلسة التي توسعت قليلاً. شرب كأسه الأولى وبسرعة، واستمع إلى المفوض وليد الذي كان يسرد بعض مناقب ملوكي:

–كان، ليرحمه الله، كريماً يمنح كل ما لديه للآخرين.

اعترض ابن جحيل الكبير:

–مَنْ قال ذلك؟.. تحتاج إلى مطرقة لتحطيم ثلاثة أصابع من كل يد من يديه لتحصل منه على نصف ما تريده.

قال المفوض وليد من دون أن يأبه لاعتراض ابن جحيل الكبير:

–وكان أميناً ونزيهاً و...

فقاطعه ابن آخر من أبناء جحيل:

–مَنْ؟.. ملوكي؟.. هذا اللص؟.. حتى البدلة التي اشتعلت معه سرقها من العمال اليوغسلاف الذين شيدوا جسر مغربة.

قال المفوض عدنان:

–لكنه لم يسرق شيئاً منا.

–لأنكم محظوظون و...

قاطعه المفوض جعفر:

–ولم يسرق شيئاً من نجرس.. لا من ورشته ولا من بيته.

عاد ذلك الابن ليقول:

–لقد تربى في بيت وورشة نجرس.. كان ينظر إلى نجرس مثلما ينظر ابن إلى أبيه.

قال المفوض وليد بنبرة يشوبها الضيق:

–ألم يكن متسامحاً؟.. هيا أنكروا ذلك أيضاً.

قال ابن جحيل الذي يشغل الترتيب الثاني بين أخوته:

–أنت تتحدث يا وليد عن شخص آخر لا نعرفه.. ملوكي متسامح؟.. أنت نفسك يا وليد تعرف أنه لا يغفر لأحد خطأه.. إنه منتقم خسيس، وسبل انتقامه غريبة ولا يمكن لأحد أن ينجو منها.. مرة، صفعه جاسم صفعة قوية، لا أعرف ماذا كان السبب، لكن جاسم صفعه. عند العصر وعندما كان جاسم يتحدث معي في باحة البيت الداخلية، تحركت طابوقة من سياج السطح، تحركت من دون أن ينبته لها أحد، ثم سقطت من السياج، وتمدد جاسم بكل طوله على الأرض والدم يتدفق من رأسه، وتسلقنا السلم بعد ثانيتين أو ثلاث تحركت ثلاث طابوقات من سياج السطح أيضاً، وحملنا جاسم الذي كان يصرخ مثل الأطفال إلى صابر مجبر العظام، ليعيد كتفه المخلوع إلى مكانه. ولم نجد أحداً على السطح أيضاً. كنا على يقين أن ملوكي سيرسل جاسم إلى القبر، وهكذا أجبر جاسم على هجر البيت والمبيت في بيوت أصدقائه، ولم يرجع إلا بعد أن تصالح مع ملوكي.

أكد الأخ الأكبر:

–كاد يقتلني في يوم من الأيام.

استعر الغضب في صدره عندما استعاد تلك الذكرى، فهدر:

–إنه ولد حقير، وكلب ابن سلالة كلاب.

بعدئذ تكلم الجندي الغريب، لم يتحمس لكل ما سمعه، وفي نفس الوقت لم يستنكره، إنما سأل بلهجة باردة، محايدة ومهذبة:

–مَنْ يكون هذا؟

أجابه المفوض وليد بوجه مقطب:

–ملوكي.

عاد الجندي الغريب يسأل بنفس اللهجة السابقة:

–ولكن، مَنْ يكون ملوكي؟

مرة ثانية أجابه المفوض وليد وبنفس اللهجة:

–صاحب هذا السرادق.. المرحوم.. الميت الذي نغرق أنفسنا في العرق لكي ننسى حزننا عليه.

عندئذ تبدلت لهجة الجندي الغريب.. تحولت إلى لهجة ذات نبرة ثقيلة، لائمة ومقرعة بتهذيب، ومنذرة بأمور غامضة.. قال:

–لا يجب أن نتحدث عن الموتى في مأتمهم بهذه الطريقة.

فجأة، انطلق صوت غاضب من الجهة التي تجمّع فيها أبناء جحيل:

–اغلق فمك أيها الغريب.

قال المفوض عدنان"

–يجب أن نغلق أفواهنا جميعاً.

←←

-8-

بحلول الشتاء تسلم ملوكي، بعد تلك الرسالة الملصقة على مغلفها صورة حبيبين متعانقين مقتطعة من مجلة أجنبية، كمية من الرسائل يمكن أن تملئ شوالاً يتسع لاحتواء مائة كيلو غرام من الرز. رسائل محيّرة ومدوّخة وعصية على الفهم، ولولا قلبه الملتاع بالعشق لأعتقد وآمن أنها هزلية ومضحكة وسخيفة وخربشات أطفال مازالوا عاجزين عن الوقوف على سيقانهم. تماماً مثل الرسالة الأولى التي صدّعت رأسه حين فتح مغلفها وتطلع إليها ووجد أن لا كتابة في الورقة التي أخرجها من المغلف، فقط رسوماً موزعة في أمكنة مختلفة من سطحها. ظن في الوهلة الأولى أنها نوع من الأدعية والتمائم، لكن القلب المخزوق بسهم والدم ما يزال يقطر منه مكوناً بركة تحته، لكن العينين اللتين ما تزالان تسحان الدموع مكونتين بحيرة دموع تحتهما والأسماك تعوم داخلها وعلى سطحها، جعله يتيقن أنها رسالة حب من الحبيبة. غير أن دماغهُ أغلق تماماً وهو ينظر إلى رسوم أخرى.. لجأ إلى نجرس عله يفك هذه الطلاسم التي بلّدت مخه.

–ماذا تعني يا نجرس العينين المفتوحتين وفوق إحداهما شمس وفوق الأخرى قمر؟

حتى نجرس الوارث حكمة الشيوخ المندائيين القدامى والمنيع على الانجراف وراء الحماقات الجميلة التي تمتلك إغراءاتها الخاصة التي لا تقاوم، حتى نجرس هجس وراء تلك الرسوم الغريبة والغامضة أسراراً قد تنفتح على حقائق كبيرة، لو تسنى له فكها والولوج وراء غموضها، من دون أن يخطر في باله أبداً، إنها قد تكون وليدة العبث. انفجر ملوكي وهو يرى نجرس يمعن النظر في الرسوم مدة طويلة كما لو أنه غرق فيها من دون أن يملك القدرة على الخروج منها.

–ماذا يا نجرس؟

نظر نجرس إليه بعينين ماتزالان حالمتين وغارقتين في الرسوم الغامضة.. قال:

-ماذا؟

-لماذا هذه الرسوم التي لا أفهمها؟.. لماذا لم تكتب رسالتها مثلما يفعل العشاق الآخرون؟

-حبيبتك فتاة ذكية.. إنها تعرف إنك لا تقرأ ولا تكتب، ولو كتبت لك رسالة عادية فسوف تلهث لتعثر على من يقرأها لك، وعندئذ يخرج سركما إلى شخص ثالث، فهل تعتقد أيها الجرو الأسود أن لسان هذا الشخص سيبقى ساكناً من دون أن يتحرك أمام الآخرين؟.. هل تعتقد ذلك؟.. أما هذه الرسوم فماذا سيجد فيها الآخرون لو وقعت في أيديهم؟.. ألا ترى إنك أنت نفسك عاجز عن فهمها؟.. إن حبيبتك يا ملوكي امرأة ذكية، وهي تعرف كيف تحمي نفسها.

حلقت ساهرة فوق النخيل المطل على الورشة ولو كان هناك سحاب في السماء لحلقت فوقه أيضاً. ومع أن الماجدية بشوارعها وأزقتها المتشابكة لا تصلح لكي يهيم الإنسان فيها على وجهه، فقد ترك نجرس ليهيم. في حوالي ساعة الظهيرة، دار ملوكي خلال هيامه في نفس الشوارع وفي نفس الأزقة ثلاث مرات. كان الكثير من قاطني تلك الأماكن، قد نظروا إليه بدهشة وريبة، وكاد يسأله بعضهم إن كان يبحث عن شيء قد فقده. في الساعة الواحدة بعد منتصف النهار تسلم ملوكي رسالة الحبيبة الثانية، وهذا يعني أنه وجدها في نفس المكان عند طرف لسان الأرض الذي وجد فيه الرسالة الأولى. كان شاحب الوجه حين وضعها على سطح القارب المقلوب حيث كان نجرس فارشاً الرسالة الأولى ودارساً العينين اللتين يعلوهما القمر والشمس.

-العينان المفتوحتان اللتان تعلوهما الشمس والقمر موجودتان في هذه الرسالة أيضاً.. ماذا يعني ذلك يا نجرس؟

في لحظة صفاء عجيبة لم تمر على المندائي فيما مضى رأى بوضوح ما يمكن أن يكون هو المعنى دون غيره، رآه كما لو أن حجباً سميكة وقاتمة قد تهاوت فجأة ومرة واحدة كاشفة عند المغزى المستور.. قال:

-العين المفتوحة يا ملوكي هي العين التي لا تنام، والشمس تعني النهار والقمر هو الليل.. تلك الفتاة تخبرك أن النوم جفاها ليلاً ونهاراً.

حتى ملوكي تكشف له المعنى بوضوح تام وهو ينظر إلى الرسمين في

الرسالتين. كاد ينهار تحت وطأة الشعور بالذنب، فهو ينام منذ منتصف الليل إلى حوالي منتصف النهار، لولا الرسم الآخر في الرسالة الثانية.. الرسم الذي كان نجرس يمعن النظر فيه بصمت، ممراً يده في لحيته النامية. حاول ملوكي أن يساعد نجرس حين قال:

–شجرة بعيدة عن النهر ورجل وامرأة يحفران ساقية تبدأ من النهر نحو تلك الشجرة.. ألا يعني أنهما يريدان سقي الشجرة؟

من دون سابق إنذار أزاح نجرس الرسالتين عن سطح القارب المقلوب بيده، أزاحهما بغضب فطارتا في الهواء مرفرفتين قليلاً قبل أن تحطا على الأرض في مكانين متباعدين. تفاجأ ملوكي بهذه الحركة التي اعتبرها دنست جزءاً من قدسية عشقه. رفع رأسه إلى نجرس بعينين غاضبتين، قال:

–ماذا؟

–هاتان الرسالتان لم ترسلهما فتاة يا ملوكي.. إنهما..

قاطعه ملوكي والغضب مازال في دمه:

–أنت تكذب.. وكيف عرفت؟

امسك ملوكي من ذراعه وأجلسه على سطح القارب المقلوب، وخاطبه قليلاً:

–لا أعرف مَنْ تكون حبيبتك، ولا أريد أن أعرفها.. لكن الرسالتان ليستا منها.. هناك شخص آخر بعثهما.. هل فهمت؟

–كيف عرفت؟

–لا وجود لامرأة عاشقة في كل الأرض تفكر بمسحاة تشق بها ساقية، هذا عمل عابث لا يقوم به إلا شخص غايته أن يضحك منك.

حاول ملوكي أن ينهض من جلسته، لكن نجرس أمسكه على كتفيه وثبته في مكانه بقوة:

–أنا أعلم تمام العلم أن رأسك هذا خالٍ من أي مخ، ومع ذلك فأنا أحذرك يا ملوكي.. ابتعد عن هذه الفتاة.. انسَ هذا السخف.

–أي سخف؟

–هذا الذي تسميه حباً.

ولم ينسَ ملوكي هذا السخف، بل غطس فيه حتى طرف أنفه، وعام فيه من دون وجل ولا حذر. خلال ذلك الشتاء، أصبح ملوكي خادماً لعائلة الصياد الأعرج

من دون أجر، خادماً لا نهاية للواجبات التي يقوم بها في ضوء الشمس وتحت أنظار الناس وأسماعهم. وفي الليل تحوّل إلى التابع الذي ليس بوسعه أن يرفض أمراً للمفوضين الثلاثة، وبخاصة عدنان. حاول ملوكي، في تلك الأيام التي جلب فيها مشتريات السوق اليومية لمطبخ بيت الصياد الأعرج، ان ينال أكثر من الابتسامة من ساهرة، حاول ذلك من دون طائل، بل مع تكرار تلك الأيام، بدأت ابتسامة ساهرة بالذبول ثم بالاختفاء، وحتى تحياتها الرقيقة تحولت إلى كلمات مقتضبة، جافة ومن دون حلاوة. مع ذلك، كان ملوكي يرى شفافية في كل ما يراه أو يسمعه. كان لا يحس بالجفاف في نبرة صوتها ولا التجهم في تعابير وجهها. على العكس، كان يغطس في سعادة لا قاع لعمقها حالما يسمعها تتكلم، أو حينما يتطلع إلى وجهها الجميل حتى حينما يعقده التجهم والعبوس.

خلال ذلك الشتاء أيضاً، لم ينقطع غذاؤه الروحي في أي يوم من الأيام. في عصر كل يوم يتلقى رسالة جديدة، وما عاد نجرس يساعده في جلاء غموضها، هو ملوكي واعتماداً على نفسه من دون مساعدة الآخرين، استطاع أن يكوّن له قاموساً لمعاني الرسوم، استخرجه من كثرة الرسائل التي وصلت إليه في المكان المحدد تحت النخلة في طرف لسان الأرض، مع ذلك، كانت ظلال الحزن تنوش سعادته في بعض الأيام وتلونها بألوان ما كان بوده أن يراها على الإطلاق.

فنجرس أنجز كل أعماله في بداية الشتاء، وما عاد يظهر في الورشة طوال أيام كثيرة جداً، أمضاها مع أفراد ملته المندائيين الذين يسكن معظمهم في محلة السرية في الجانب الآخر من النهر. كما هجر المفوضون الثلاثة وأصدقاؤهم لسان الأرض بسبب برودة الجو والمطر ولجأوا إلى النوادي الليلية، ما عدا بعض الأمسيات الدافئة التي استطاع أن يقنعهم بقضائها تحت سقيفة ورشة نجرس، وهي أمسيات قليلة جداً. وعلى الرغم من إحساسه الدافئ بالرفقة في تلك الأمسيات، إلا أنه كان يمضغ فيها بعض المرارات الصغيرة التي يجهل كيف تتجمع مثل غيوم صغيرة مرهقة للنفس، تمتلك مقاومة ضارية مضادة لبعثرتها. وفي صباح اليوم التالي، يعني حين يسترد صحوه، يقرر قراراً قاطعاً بعدم دعوة المفوضين الثلاثة وعلوكي وعلي بن وحيد وعلي بن حسين وعلي بن موسى، لقضاء أمسية أخرى تحت سقيفة الورشة. لكنه حالما يتسلم الرسالة عصراً في طرف لسان الأرض فإنه يبحث عنهم بلا هوادة مدفوعاً بوهم السعادة. ثم اكتشف في إحدى تلك الأمسيات، إن المفوض عدنان هو مَنْ يقوم بتكثيف غيوم المرارات الصغيرة تلك، والتي لا مفر له من مضغها في نهاية المطاف. وحالما ورد إلى

باله أن هذا المفوض هو شقيق الإنسانة التي انصهر في حبها، سقط في دوامات من الهلع، لا لأنه كان يخاف من انتقامه وبطشه، بل خاف من وقوفه في طريق هذا الحب، من إقدامه على تمزيق سعادته التي لم يتصور، في أي لحظة، أنه قادر على الاستمرار في الحياة من دونها.

لم ينتظر طويلاً، يعني أنه لم يترك قدره وقدر حبه للأيام لتفعل بهما ما تشاء، فقد لجأ إلى المفوض وليد في ظهيرة يوم عاصف وممطر. لم يكن عدنان وجعفر في مركز الشرطة. وجده وحيداً وحاضناً المدفأة النفطية في غرفة المفوضين:

–ملوكي؟.. هل ضربك أحدهم؟

جلس ملوكي المبلل هو وبدلته بماء المطر على الأريكة الطويلة إلى جانب المفوض وليد..

أجاب وهو يرتجف:

–مَنْ يضربني سأرد له الضربة.

–أنت لم تأتِ إلي في مثل هذا الجو من دون سبب.

قال ملوكي بتردد:

–أنت ترى ماذا يفعل بي عدنان.

نظر المفوض وليد إليه بعينين تسكنهما الدهشة:

–المفوض عدنان؟.. ماذا فعل بك؟

عاد ملوكي يقول بنفس صوته المتردد:

–في جلساتنا.. ألم ترَ كيف يخاطبني؟.. إنه يجرحني بكلامه...

قاطعه المفوض وليد ضاحكاً:

–إنه يمزح معك.. كلنا نمزح معك؟.. لماذا تعتقد أنه يجرحك؟

تململ ملوكي في مكانه.. قال ونبرة ألم في صوته:

–الكل يمزح معي، أنا أعرف ذلك.. لكن عدنان لا.

وضع المفوض وليد ذراعه على كتف ملوكي وضمه إليه.. قدم له سيجارة، وقال:

–أنت لست صديقنا فقط يا ملوكي.. لقد ولدنا ونشأنا جميعاً في مكان واحد،

أيها الصياد الصغير أنت أخونا.

وخرج الصياد الصغير من مركز الشرطة مشحوناً بإخوة يعرف ماذا تعني في محلة مثل الماجدية.

مرت على تلك الزيارة ليال عديدة شديدة البرد أو كثيرة المطر، قضاها ملوكي وحيداً مع ربع زجاجته وكأسه تحت سقيفة ورشة نجرس. غير أن العزاء الذي خفف من وطأة وحدته لم يختفِ أبداً، العزاء الذي يجده عصر كل يوم تحت النخلة السامقة في طرف لسان الأرض. كان يرى، على الرغم من الظلمة التي تلف السقيفة، رسوم تلك الرسائل. يتبينها بوضوح في وهج جمرة سيجارته مثلما يتبين طائر ليلي جارح فريسته في الظلمة. لم يتعود ملوكي أن يتحدث مع نفسه، يناجيها ويشكو لها أو يبثها الهموم التي ركبت ظهره والتي تحركت بعنف حالما اخترق العشق قلبه. كان يكرع كؤوسه صامتاً، ويدخن صامتاً، وينظر مخترقاً الظلمة المحيطة به وبالسقيفة وبالورشة وملتقطاً التماعات الضوء فوق سطح النهر بصمت أيضاً، من دون أن يشعر بثقل لهذا الصمت الذي أطبق عليه. وحتى حين يتسلل إليه علوكي في وقت متأخر من بعض الليالي، فإنه يظل مبتلعاً لسانه. ومع أن علوكي متحدث لبق يعرف كيف يجعل الكلمات تصطف بمهارة واحدة وراء الأخرى، فإن ملوكي لم يكن يستمع إليه في غالب الأحيان. كان علوكي يعرف ذلك تمام المعرفة، غير أنه عجز عن معرفة العالم الذي يلجأ إليه ملوكي في مثل هذه الأوقات، وما كان ذلك ليزعج علوكي الذي يستمر متدفقاً بالكلام.

في الشهر الأخير للشتاء، حل الوقت العصيب الذي له طعم مرارة الحنظل في فم ملوكي. فهو لم يفهم أبداً كيف تمزق بين قلبه ومعدته، لأنه هو نفسه لم يقم للنقود وزناً أو أهمية في أيما يوم من أيام عمره الماضية. الآن، بدأ يقف في مواجهة محنة نفاد نقوده التي كانت تملأ جيبيَ بدلته العلويين، والتي أنفقها طوال شهور الشتاء الماضية حين توقف العمل في ورشة نجرس. حاول أن يستدين من نجرس، لكن نجرس أخبره بلهجة حاسمة، أنه يصعب عليه العثور على دينار واحد يمكن أن يسلفه، لا له هو ملوكي ولا لأي شخص عزيز على قلبه في هذه المدينة. فكر بقلبه كعاشق يحدوه الأمل بسعادة كبيرة جداً تفوق أي وصف على الرغم من أن هناءاته الصغيرة التي يمتصها ببطء في كل مساء، ويشعر بها مثل وسادات اسفنجية يغوص فيها رأسه المتعب براحة لا مثيل لها. فكر أيضاً بمعدته، ليس بذلك الأكل الذي تعارف عليه الناس، إنما بذلك الشراب الكفيل بجلب

السعادة من أكثر الأماكن إظلاماً وإقفاراً، وعجب كيف أن لا فكاك بين قلبه ومعدته.

عاد إلى ورش أولاد عمه موازناً بدقة عاشق متمرس بين متطلبات المعدة وأهواء القلب. لم يكن أبناء عمه قد افتقدوه طوال هجره لورشهم، بل هم نسوة وتذكروه الآن فقط حينما وقف أمامهم. لم يعترضوا على عودته مثلما لم يقرعوه على ابتعاده عنهم، وتقبلوا وجوده ثانية مثلما يتقبلون إضافة آلة جديدة إلى صناديق آلاتهم القديمة، ولم يعترضوا أيضاً على حضوره ساعة يشاء واختفائه في أية ساعة يشاء. حرص ملوكي خلال ذلك الشهر الأخير من الشتاء، على المحافظة على قيود عبوديته العذبة المشدودة بحبال غير مرئية ببيت الصياد الأعرج. فهو في الضحى، يقف بباب البيت ليتلقى الابتسامة وتحية الصباح، ثم يبدأ هرولته المعتادة بين البيت والسوق. تلك الهرولة التي هي زوادة عشقه طوال النهار حتى الساعة الرابعة عصراً عندما ينضو عنه ملابس العمل المشبعة بزيوت وشحوم السيارات. يعود إلى الماجدية لاهثاً، وبعينين تكاد تغمضهما نشوة سعادة مبكرة جداً على تسلم رسالة الحبيب. مع ذلك، كان يجدها عاجلاً أم آجلاً في طرف لسان الأرض وتحت النخلة السامقة. وهكذا تبدأ أمسية جديدة من سعادة تتدفق بكميات متساوية ومن دون انقطاع، وكانت تلك السعادة تخرج من قلبه هو لا لتمس الموجودات من حوله، بل لتطوقها أولاً ومن ثم تغرقها في لجة شفافة ونقية وخالية من أية رغبة أنانية. كان نجرس يفاجئه في بعض الليالي وهو تحت السقيفة مع كأسه وحيدين في الظلام. لم يكن نجرس ليفكر في إفساد أية من أماسيه، لذلك يظل واقفاً أمام السقيفة أو يجلس على أحد قواربه المقلوبة، متلقياً الهواء المشبع بالندى القادم من النهر القريب. كان يجلس صامتاً ووجهه باتجاه النهر وكأنه ينتظر قدوم نبيه منه. حين تطول جلسة المندائي في الظلمة المنداة بهواء النهر، يبدو لملوكي وكأنه شبح شرير ينتظر الفرصة للانقضاض عليه، وعندئذ تتآكل يديه رغبة عارمة في تناول حادلة القار الغليظة والهجوم عليه.

ونجرس نفسه في جلسته على قاربه المقلوب، والذي تحول إلى شبح شرير في عيني ملوكي اللتين أزاغهما شرابه المسكر، كان يفكر بعقل منذهل لما يراه ويسمعه طوال هذا الشتاء من تصرفات وأقوال ملوكي، بدءاً من اصطياده للهدهد وانتهاءً بالرسائل العابثة. فكر، أنه ما من عبث أو سخف يفوق وقوع فتاة في غرام هذا الأسود، الأحدب، القميئ الذي يشبه القرود أكثر مما يشبه بني آدم. غير أنه عاد وعدّل من قناعته، فهو قد رأى فيما مضى من حياته الكثير من الأحداث

العصية على التصديق التي صنعها الحب، والتي لا يمكن أن تحدث لولا القوة غير المرئية لهذا الحب. أيقن نجرس، وهو الرجل الذي تصالح مع الحياة وصروفها منذ وعي أنه لا مفر له من العيش مع كائنات تشبهه في كل شيء، إن الحب هو القوة السحرية الوحيدة في هذا العالم التي تمتلك طاقة تدميرية لا حدود لها، وإن الحمقى فقط، هم الذين يتعاملون معها من دون حذر. كانت خشية نجرس تدور حول المصير الذي سيصل إليه ملوكي لو ظل مستمراً في السير وراء قلبه.

تنبه المندائي إلى أن الهواء المندى قد بلل ثيابه، فنهض من فوق سطح القارب المقلوب. نظر إلى ملوكي القابع في ظلمة السقيفة وعينيه تلتمعان فقط. وتساءل في سره: هل يمكن أن ينتهي مصير هذا الجرو الأسود إلى مصيبة؟.. أدار ظهره للسقيفة ومضى باتجاه بيته من دون كلمة وداع.

ظلت المصيبة التي توقعها المندائي تدور بعيداً عن مصير ملوكي حتى انتهى الشتاء بحلول الصيف جاءت الزوارق المعطوبة عائمة بتثاقل إلى ورشة المندائي، وهذا يعني أن ملوكي سيبقى على مقربة من بيت الصياد الأعرج. كما يعني أنه سيعاود خدمة المفوضين الثلاثة وعلوكي وعلي بن وحيد وعلي بن حسين وعلي بن موسى خلال جلسات المساء على لسان الأرض. بدا له وهو يربت على عظام الهدهد من وراء قماش بدلته الرمادية المزرقة إن هذا الصيف هو صيف سعادته القصوى التي لا تضارعها أية سعادة لأي مخلوق فوق هذه الأرض. عند العصر، وقبل أن يأتي المفوضون الثلاثة لأحياء حفلتهم الأولى في هذا الصيف الوليد، عثر على رسالتين خلافاً لما هو معتاد. إحداهما مثل سابقاتها تعد بالوفاء والهناء وقرب الوصال، والثانية مليئة بالدموع وبالدماء. لم يتوقف عند الثانية أبداً، ولم يعتبرها نذير سوء أو شر قادم في الطريق سيصل عاجلاً أم آجلاً، لأنه في مقدم هذا الصيف ما يزال يعوم في سعادة العاشقين.

أحيا المفوضون الثلاثة وجلساؤهم ومعهم ملوكي جلسة كان ملوكي سيظل يتحدث عنها لو تسنى له أن يعيش أكثر مما عاش من عمره القصير. كل شيء كان أكثر مما يجب: قناني العرق والفواكه والبقوليات وحتى الأقداح. حلق صوت علوكي فوق سطوح البيوت من جانب، وفوق سطح النهر من جانب آخر، حتى أن العابرين على الجسرين توقفوا لسماع صوته العذب. ظل ملوكي حتى ضحى اليوم التالي يسمع صوت علوكي الذي ما يزال يرن في أذنيه.

في هذا الضحى أيضاً هرول ملوكي مثلما يفعل كل يوم إلى بيت الصياد

الأعرج. سقطت الكآبة عليه في اللحظة الأولى عندما وقف الباب. لم تظهر ساهرة، إنما والدتها التي ناولته السلة والنقود، وحددت له بكلمات قليلة حاسمة، الأنواع والكميات من الخضروات واللحم والفواكه والخبز. بدا في ذلك الضحى والسلة في يده كما لو أنه ما يزال تحت تأثير أبخرة عرق مساء أمس. ملأ السلة من دون تدقيق من نوعية ما اشترى، ودفع نقوداً من دون أن يجعل الباعة يجهدون في إقناعه بالأسعار مثلما يجري كل يوم. انقبضت نفسه وهو يقف مرة ثانية في باب بيت الصياد الأعرج، فالأم بوجهها الصارم أخذت منه السلة وأغلقت الباب. أحس أن تعاسته في هذا اليوم لا يمكن قياسها بأية تعاسة سابقة مرت عليه. لكن صمد أمام هذا الطارئ الجديد الذي يجهل سبب حدوثه. صمد لأنه كان متيقناً تمام اليقين بكل تلك الرسوم المرسلة من الحبيبة، متيقناً من الشوق وعدم النوم لا في الليل ولا في النهار من أجله هو ملوكي، ملوكي المعشوق الذي تسبب في إطارة النوم من عيني أجمل فتاة في الماجدية، بل في العمارة كلها. وهكذا نجح في لي الوقائع المريرة وجعلها ذات مذاق مستساغ. لم يتوصل ملوكي شأن العشاق الآخرين، إلى هذا التوافق السريع بين عالمه الخارجي الذي لا يكف عن زرع كل ما يمكن أن يخلق الأحباطات وبين لوعة قلبه وهيجان مشاعره، إنما بنى قناعته على الرسوم التي امتلأت بها رسائل الحبيبة، وكان هذا أكثر من كافٍ ومرضٍ بالنسبة لملوكي.

لكن الشرطي الذي كان ينتظره وراء منعطف الزقاق، لم يمهله ليحلق فوق نخيل البستان المجاور، قاده إلى مركز الشرطة باحترام يستحقه أحد أصدقاء المفوضين الثلاثة. تركه في باب غرفة المفوضين. ثم عاد إليه ودفعه إلى الداخل، ليرى المفوض عدنان وحيداً في الغرفة. كان يجلس وراء منضدته ويقرأ في ملف كبير. حياه بتحية الصباح لكن عدنان لم يردها. فكر أنه مشغول بالأوراق أمامه. خطا نحو الأريكة وجلس عليها، فالتفت إليه المفوض عدنان وقال:

–كيف جلست من دون إذن مني؟

حتى حين سمع هذه الجملة الجافة تنطلق من فم المفوض عدنان، لم يرد إلى باله أنه وقع في ورطة، أو أنه سيواجه موقفاً عصيباً في الأقل. ظل ينظر إلى صديقه من دون ذهول، ومن دون استغراب.

–انهض من الأريكة وقف حيث كنت.

هذه المرة، أوقفت لهجة الأمر الحادة وغير المعقولة بالنسبة إليه جفنيه عن الحركة. حاول أن ينهض غير أن جسمه لم يطاوعه كما لو أنه تحوّل إلى كتلة

من السمنت المتصلب. أغلق المفوض عدنان الملف ونهض واقفاً. دار حول منضدته ووقف أمام ملوكي، بدا وكأنه يقف فوقه، فاضطر ملوكي الذي لم يصدق ما يجري حتى هذه اللحظة، أن يرفع رأسه إليه.

–إذن، أنت متمرد؟

مرفوعاً رأسه ومبتسماً والشحوب خفف من بشرة وجهه الداكنة فظهرت دوائر بيض صغيرة في خديه ورقبته، عندما ارتفعت ذراع المفوض عدنان اليسرى بامتداد صدره، ثم مثل سوط سريع تحركت باتجاه ملوكي، فرن صوت صفعة قوية جداً. انطرح جسم ملوكي على الأريكة وارتفعت رجلاه في الهواء. انحنى المفوض عدنان عليه ورفعه إلى الأعلى من إبطيه، ودار حول نفسه وهو ما يزال حاملاً ملوكي الضئيل الجسم، ليضعه على قدميه في وسط الغرفة. هزه عدة مرات ليرفع رأسه، ثم ترك إبطيه وأمسك بقبضة يده اليسرى أعلى بدلته، وبكفه اليمنى سدد إلى وجهه صفعاته القوية والسريعة التي لم يستطع ملوكي تفاديها. لم يكف المفوض عدنان عن توجيه صفعاته إلا حين رأى رأس ملوكي يميل مع كل ضربة مثلما يميل رأس طائر ميت. رماه على الأرض وعاد ليجلس وراء منضدته لاهثاً.

–سترى عاقبة التدخل في سير القانون.

ثم نادى على الشرطي الذي يقف في الباب. خاطبه من دون أن ينظر إليه.

–خذه إلى غرفة التوقيف.

في غرفة التوقيف الطويلة جداً، رماه الشرطي في إحدى زواياها البعيدة. بدا للموقوفين أن هذا الفتى الذي يرتدي بدلة غريبة، والممدد على الأرض من دون حراك، أنه ربما فارق الحياة، لذلك لم يقتربوا منه. حتى حين وصلت وجبة الغداء تركوه في حالته من دون أن يدعوه إلى الطعام. غير أنهم عرفوا أنه ما يزال حياً حين رأوا خطي دموعه يلتمعان في نور العصر وهما يجريان باتجاه أذنيه. على الرغم من تلك المعرفة، وعلى الرغم من وجوده معهم بين جدران غرفة التوقيف كشريك من الواجب مد يد العون إليه لكي يظل متماسكاً أمام قوة القانون، لم يتجرأ أحد منهم على الاقتراب منه، فهم لم يروا سابقاً موقوفاً محمولاً بين ذراعي شرطي ليودع في التوقيف. ظل ملوكي نازفاً دموعه بصمت وهو في وضعيته من دون أن يبدلها في تلك الزاوية البعيدة من غرفة التوقيف إلى أن حل صباح اليوم التالي، وهذا يعني أن الوقت الذي يقوم فيه الشرطة بإغلاق الباب الخارجي للمركز ثم ينتشرون حول الفناء وأسلحتهم بأيديهم، قبل أن يفتحوا باب غرفة التوقيف، ليتيحوا للموقوفين وقتاً كافياً للذهاب إلى دورة المياه.

وقف شرطي الأمس فوق ملوكي الذي ما يزال ممداً في المكان الذي وضعه فيه ضحى أمس. انحنى عليه وهزه من كتفه:

–ملوكي.. ملوكي.. استيقظ يا ملوكي.

نظر إليه بعينين ما تزالان نديتين–

–نمت طويلاً جداً يا ملوكي.. أسرع بالخروج قبل أن يبدأ وقت الدوام.. لن تحظى بدورة مياه أخرى إلا في الساعة الثامنة مساءً.

حين لم يحصل الشرطي على جواب من ملوكي، اضطر إلى رفعه من صدره عن الأرض:

–في الأقل اغسل وجهك يا ملوكي.

أنهضه عن الأرض ودفعه أمامه خارج غرفة التوقيف، وواصل دفعه حتى أدخله غرفة دورة المياه الواسعة التي احتلها الموقوفون. عاد ملوكي إلى نفس المكان في غرفة التوقيف بعد أن وضع رأسه مدة طويلة تحت حنفية الماء. جلس القرفصاء شابكاً ذراعيه فوق ركبتيه، وواضعاً رأسه عليهما. يبدو أنه استنفد كل دموعه خلال الوقت الذي أمضاه ممدداً على أرضية غرفة التوقيف. رفض دعوة الموقوفين لتناول وجبة الفطور التي وصلت، وكذلك وجبة الغداء. حين صفا رأسه من الطنين الذي سببته صفعات المفوض عدنان، حاول أن يفكر، حاول أن يصل أو يفهم الأمر الذي لم يفهمه لحد الآن، والذي لن يفهمه أبداً لو رواه أحدهم له وكأنه وقع لشخص آخر غيره. حاول أن يعود بالزمن إلى الوراء من أجل أن يقرن أو يربط ما جرى من أحداث منذ.. فكر: منذ متى؟.. مساء أول أمس كنا معاً تحت النخلة على لسان الأرض.. أمس جلبت ما طلبته أمه من حاجات البيت، ثم أتى بي الشرطي إلى المركز.. كيف يمكن لعدنان أن يضربني؟.. خدمته وخدمت عائلته.. ويضربني؟.. كان ملوكي يمر بالسبب الحقيقي من دون أن يراه. وهكذا ظل غافلاً عن سبب تعاسته وذله وهوانه.

طوال وجوده خلف قضبان التوقيف منذ أمس وحتى ظهر هذا اليوم، لم يفطن أحد لغيابه، فأولاد عمه لا يتذكرونه إلا حين يقف أمامهم. ونجرس لم يهتم أو يقلق لهذا الغياب، فقد تعوّد على نزوات ملوكي التي كثيراً ما تجعله يختفي عن عيني نجرس أياماً عديدة. وهكذا أمضى كل ذلك الوقت منسياً ومرمياً بين الخارجين على القانون. والمفوضان وليد وجعفر الموجودان على بعد أمتار قليلة منه لم يمرا به، ولم يستدعه أحد للتحقيق. عند هذا الخاطر الأخير تغلغل الخوف

فيه حتى كعبي قدميه، ورأى من دون أن يتخيل الطريق واضحاً إلى السجن، إذ تذكر أن لا أحد وقع في قبضة المفوضين الثلاثة وفلت من السجن.

في الساعة الرابعة عصراً، تلك الساعة التي تخلو فيها شوارع الماجدية من المارة هرباً من الحر، دخل علوكي مركز الشرطة وهو يغني مقطعاً من إحدى الأغاني. تلك كانت مصادفة غريبة، مصادفة أعادت الحرية المفقودة إلى ملوكي، إذ لم يكن علوكي ليدخل مركز الشرطة لأي سبب من الأسباب، فلديه قناعة راسخة بأن المطربين يجب أن لا يدخلوا أي مركز شرطة، لئلا يلحق الأذى بسمعتهم. لكنه في هذه الساعة الساخنة من النهار، لم يدخل مركز شرطة الماجدية فقط، بل دخله مترنماً بمقطع من أغنية. كان الحارس الواقف في الباب والبندقية معلقة إلى كتفه يعرفه جيداً ويعرف بصداقته الحميمة للمفوضين الثلاثة، قد ترك باب المركز وسار وراءه إلى الداخل. وقف علوكي أمام كل نافذة من نوافذ غرفة التوقيف، ثم أدار ظهره لمن في الداخل واتجه نحو الباب الخارجي. لكنه توقف في منتصف المسافة إلى الباب. لقد رأى بدلة رمادية مزرقة على صدرها كتابة إنجليزية ومربعات ودوائر. تساءل بصوت عالٍ:

–لمن هذه البدلة إذا لم تكن لموكي؟

فكر أنه يعرف هذه البدلة جيداً، ولن يخطئها حتى لو وضعوها بين ألف بدلة. عاد إلى النافذة ودقق النظر من خلالها، فرأى عيني ملوكي المتورمتين.. صاح:

–ملوكي.. ماذا تفعل هنا؟

بكى ملوكي بصوت مرتفع دافناً رأسه بين ذراعيه.. صاح علوكي مرة ثانية:

–مَنْ وضعك في التوقيف؟

خرج صوت ملوكي ضعيفاً متقطعاً مع نحيبه:

–المفوض عدنان.

اختفى علوكي من فناء المركز كما لو أنه طار بجناحين. عاد بعد أقل من نصف ساعة وبرفقته المفوض وليد من دون بيريه على رأسه. كانت آثار النوم واضحة في وجهه. نظر إلى ملوكي وهو ما يزال جالساً القرفصاء في زاويته، فمضغ شفته السفلى. توجه إلى غرفة المفوضين وبحث في الأدراج واطلع على كل الأوراق. أيقظوا له عريف المركز الخافر.. سأله:

–مَنْ وضع ملوكي في التوقيف؟

–المفوض عدنان سيدي.

–أين أوراقه؟

–لا أوراق لديه سيدي.

–تعني أوقفه من دون أمر من حاكم التحقيق؟

–نعم سيدي.

ضرب المفوض وليد المنضدة بقبضة يده. نهض وقال للعريف الخافر:

–أطلق سراحه فوراً.

جاء ملوكي مترنحاً في مشيته وراء العريف. خاطبه المفوض وليد:

–لنذهب إلى البيت يا ملوكي، فكل شيء قد انتهى.

ولم تنتهِ الأشياء مثلما قرر المفوض وليد، بل هي بدأت الآن. سار الثلاثة في شارع الملعب باتجاه سوق الماجدية. ما كان ملوكي يسمع كلمات المواساة المنطلقة من علوكي والمفوض وليد، ولا وعده الحاسم بعدم حدوث هذا الأمر ثانية، فدماغه اشتعل بفكرة واحدة، فكرة ملحة ومتسلطة: الوصول إلى جورج منصور.

تساءل جورج منصور بدهشة:

–نصف زجاجة يا ملوكي؟.. وفي هذا الوقت المبكر من النهار؟

وضع ملوكي النقود على المنضدة أمام جورج من دون كلام، ووضع نصف القنينة في جيب بدلته الجانبي ضاغطاً بها على عظام الهدهد. عاد إلى الماجدية ودخل بيت نجرس الخالي من ساكنيه، وأخذ من المطبخ رغيفي خبز وعدداً من حبات البطاطا المسلوقة والخيار والطماطة. خرج ماراً بالورشة فلم يجد نجرس، وواصل سيره ليغوص في البستان المجاور.

بعد ساعة من خروج ملوكي من التوقيف، تحركت الألسن في طول الماجدية وعرضها، لتلوك بهمس ذلك الذي جرى له. تنقلت تلك الحقيقة بأسرع مما تنقل أسلاك البرق: أُلقي القبض على ملوكي ووضع في التوقيف.. تنقلت هذه الجملة بين البيوت، من الأبواب والشبابيك والسطوح، دارت في الشوارع والساحة الوحيدة في الماجدية، وعبرت الجسرين إلى الجانب الآخر من النهر، وحملها الصيادون البربرة فوق ظهور قواربهم في أنهار دجلة والكحلاء والمشرح، ورموها إلى الأسماك مع شباكهم في أعماق تلك الأنهار. ثم وقعوا فيما بعد في القنوط حزانى

وحائرين ومنذهلين، لا لأنهم لا يجيدون نشر الشائعات، ولا لأنهم لا يحبذون القيل والقال، بل لأنهم اصطدموا بفراغات عديدة بين كلمات تلك الجملة أشاعت البلبلة في عقولهم التي لا تقبل بأنصاف أو أرباع الحقائق. تساءل الكثير منهم بنبرة أعلى قليلاً من الهمس: ماذا يعني أن مفوضاً يضع ملوكي في التوقيف، ثم يقوم مفوض آخر بإطلاق سراحه؟.. بدأ الماجديون، أو أولئك الذين يمتلكون عقولاً تتوهج بمصائب الآخرين، بوضع الافتراضات لملئ تلك الفراغات المحيّرة. غير أن القنوط أصابهم ثانية، فملوكي لا يمتلك أسراراً أو حياة أخرى يمارسها بعيداً عنهم، فهو واضح كوضوح المياه الجارية في نهر الكحلاء، وحتى لو ارتكب فعل السرقة، فليس هناك من يجرؤ على ملامته، فقاطنو الماجدية يكنون احتراماً خاصاً للصوص، إذ ينظرون إليهم كضرب من الشجعان الذين يتحدون النور والظلام والموت المتربص في كل لحظة، لينهبوا حاجات الغافلين والنائمين. إذن، ما الذي جعل مفوضاً يرميه وراء قضبان القانون، ثم يأتي مفوض آخر ليطوحه خارجها؟..كانوا يريدون الوصول إلى الحقيقة لكي تستقيم إشاعاتهم، فملوكي ليس وهابي الصفاط، ولا أحمد القصاب. هم يعرفون جيداً أن ملوكي ليس جليس لياليهم المترعة بالخمرة فقط، بل ولد في نفس الزقاق الذي ولد فيه المفوضان وليد وعدنان. صحيح أنه لم يكن من أترابهم، لكنه استطاع اللحاق بهم في أواخر صباهم.

ولكي يتخلصوا من البلبلة التي عصفت بإشاعاتهم، اصطادوا علوكي أكثر من سبعين مرة، وأكثر من سبعين مرة أخبرهم علوكي أنه لا يعرف أكثر من أن ملوكي خرق القانون. فيما بعد، عرف نجرس الذي تلقى الأخبار في وقت متأخر جداً، أي قانون ذاك الذي قام ملوكي بخرقه، لكنه لم يخبر أحداً به مفضلاً الاحتفاظ به لنفسه من دون أن تتبئه تجاربه الحياتية الطويلة بالخطر الجاثم قريباً من ملوكي، لأنه في تلك اللحظة، اعتقد أن كل ما قام به هذا الأسود الأحدب يمكن اعتباره من عبث الصبيان الذي يغفره الآخرون عادة. غير أنه لم يرد إلى خاطره أن ملوكي هو الذي لن يغفر أبداً.

ظهر ملوكي في الورشة في منتصف اليوم التالي، مترنحاً وبسحنة منقلبة وببدلة ملطخة بالطين. اتجه إلى السقيفة ماراً بنجرس المذهول بهيئة ملوكي الغريبة، فقد كان كل شيء في وجهه متورماً. تبعه نجرس ووقف إلى جانب عمود السقيفة، وتفحصه بنظره وهو متمدد على ظهره. خاطب نجرس بصوت لا حياة فيه:

-أعطني سيجارة.

أشعل سيجارة وناولها له، وحين عرف أن ملوكي عازف عن الكلام، أعطاه ظهره وعاد إلى عمله. استيقظ ملوكي قبل وقت تسلم الرسائل. غطس ببدلته الملطخة بالطين في النهر، وخلافاً لأحاسيسه القديمة لم يشعر بالنشوة تتغلغل وراء جلده جراء مرور تيارات الماء بجسمه الغاطس في النهر. بدا له أن جسمه وبدلته أخذ ينفثان أبخرة ساخنة يمكنه رؤيتها. تحت ضغط هذا الشعور نضا بدلته عنه وهو ما يزال غاطساً في الماء. غسلها من دون عناية، وخرج من النهر لينشرها على أحد الزوارق. عاد إلى النهر وجلس على قاع الجرف الرملي المتماسك، تاركاً رأسه فقط فوق الماء.

لا يعرف ملوكي كم مضى عليه من الوقت وهو جالس على قاع النهر، لكنه يعرف جيداً أن وقت تسلم الرسائل لم يحن بعد. مع ذلك قرر أن يسبق الوقت، وخلال ماكان يرتدي بدلته التي ما تزال تقطر ماءً، هزه شوق غريب لتسلم واحدة من تلك الرسائل التي تشيع الدفء في قلبه الملتاع. في تلك اللحظات التي تلت ارتداء بدلته المبللة، نسى نسياناً تاماً كل ما ذاقه من أذى، وكأن شخصاً آخر غيره تلقى تلك الصفعات المؤلمة وأمضى ليلة ونصفي يومين من دون أكل أو نوم في غرفة التوقيف. ذهب مسرعاً إلى لسان الأرض وعاد مسرعاً أيضاً من دون أن يجد رسالته الموعودة. رمى نفسه على حصير القصب تحت السقيفة، وواصل النوم من دون أكل أو شرب طوال يومين، حاول نجرس خلالهما أن يسحبه من نوم الموتى هذا، لكنه فشل.

في فجر اليوم الثالث فتح عينيه المتورمتين من النوم الطويل. كان فمه جافاً وشفتاه مشققتين تعلوهما طبقة من القشور. قلب نظره في الورشة، في النهر وفي لسان الأرض على مبعدة منه. يبدو أن ملوكي من ضرب العشاق الذي يجدد النوم طاقة عشقه، فهو منذ استيقظ حتى هذا الوقت الذي أمضاه غاطساً في جرف النهر، سيطر عشقه على كل حواسه. فكر: كم من الوقت مضى من دون أن يرى الحبيبة... حين توصل إلى عدد الأيام عجب كيف أن قلبه لم ينفجر لحد الآن. في الضحى توجه إلى حيث بيت الصياد الأعرج. وقف أمام الباب المغلق متجاهلاً أو متناسياً المصائب التي هجمت عليه من وراء هذا الباب.. طرقه بيد ثابتة وبقلب عاشق يوشك أن يتمزق. انفتح الباب عن ساهرة التي شحب وجهها لمرآه، والتقط في تلك اللحظة المتوترة ذلك الشحوب، ولاحظ طبقة خفيفة من السواد تعلو جبهتها..

–ما الذي جاء بك؟

كانت تلهث، وكان صدرها يعلو وينخفض بسرعة:

–لا تأت مرة ثانية أيها القرد الأسود.

وأغلقت الباب بعنف في وجهه. لم تهوِ مطرقة على رأسه، أو شرارة كهربائية مرت به وصعقته، إنما تقوض شيء في صدره، تقوض حتى كان يسمع صوت تقوضه. وهكذا لم يعد للبساتين وللطيور وللنهر معنى. عاد إلى الورشة مثل رجل عاد من المقبرة بعد أن دفن جميع أفراد عائلته، ولأول مرة في حياته شعر ملوكي أنه وحيد. فكر: إذا لم تكن تحبني فهي تحب مَنْ؟.. وتلك الرسائل، أهي مجموعة أكاذيب؟.. لم يكن يعرف ماذا يفعل بمشاعره المشبوبة التي تكاد تقلع قلبه وترميه بعيداً عنه. جلس على أحد الزوارق المقلوبة قريباً من الساحل، واضعاً رأسه بين ركبتيه، وناظراً إلى الأمام من دون أن يرى أي شيء. حاول نجرس أن يجره إلى العمل معه في تبديل ألواح زورق مرفوع عن الأرض بدعامات خشبية، لكن ملوكي لم يستجب له. استمر في جلسته في نفس المكان وعلى نفس الوضعية حتى غروب الشمس. ثم اختفى من دون أن يراه نجرس أو يحس به، كما لو أنه تبخر في الهواء. اكتشف نجرس في صباح اليوم التالي اختفاء أحد زوارقه الثلاثة الصغيرة التي يؤجرها للصيادين البربرة أو لطالبي متعة التجذيف من شباب المدينة، وعرف أن ملوكي هو مَنْ أخذ الزورق.

بعد غروب شمس ذلك اليوم بساعات قليلة، سمع قاطنو صف البيوت المطل على الشارع بين الجسرين، وسمع نجرس وهو في بيته، وسمع المفوضون الثلاثة وجلساؤهم فوق لسان الأرض، والعابرون على الجسرين أغنية ملوكي الغريبة، أغنية الصياد الصغير مثلما أطلق عليها قاطنو الماجدية. وعلى الرغم من أن أحداً لم يكن قادراً على فهم لكماتها الغريبة الغامضة، غير أن الجميع كان يشعر بها مثل سكاكين تقطع نياط القلب. كان علوكي يصيخ السمع لها، ليس لكلمات الأغنية غير المفهومة، وإنما للصوت ونبراته وتردداته التي ترتفع لتصبح أقرب إلى العويل، ثم تنخفض لتتحول إلى ما يشبه النحيب. في إحدى جلسات الليالي قال بصوت حزين:

–هذه ليست أغنية، أنها نزيف قلب سيموت آجلاً أو عاجلاً، أو ربما هي صرخة أخيرة لرجل ذبيح.

انقضى أكثر من أسبوع على اختفاء ملوكي والزورق، وفشل الجميع في العثور عليه، حتى المفوضين الثلاثة وجلساءهم الذين يهبون من جلستهم حين

تقترب الأغنية منهم، لم يعثروا عليه برغم أنهم يتوزعون على الجدار الخرساني والساحل بامتداده بين الجسرين. كانوا يسمعون أغنية الصياد الصغير قريبة جداً منهم، إلا أنهم لا يرون المغني وكأنه كائن غير مرئي، وشاع في الماجدية أن ملوكي أصيب بالجنون بسبب معاشرته للجن طوال الليل. وصلت تلك الشائعة لجحيل وأولاده الذين رفضوا تصديقها. لكن جاسم الابن الأكبر ذهب إلى ورشة المندائي وسأله من دون مقدمات:

-ماذا حل بملوكي؟

-لقد أحب.

فكر جاسم قليلاً وعاد يسأل المندائي:

-أحب؟.. لماذا؟

عجز المندائي عن الجواب، ليس في وقت طرح السؤال، بل حتى بعد سنوات. لكنه بذل جهداً هائلاً ليمنع يده من أن تهوى بالمطرقة على رأس جاسم. قال بحنق:

-امض.. امض من هنا بسرعة يا جاسم.

نسى الناس وجود ملوكي على الرغم من سماعهم طوال الليل أغنيته الناحبة. حتى المفوضين الثلاثة وجلسائهم بدأوا ينسونه تدريجياً على الرغم من أنهم كانوا يتألمون لسماع أغنية الصياد الصغير، الصياد الهائم في الفضاء من دون أن يروه. الوحيد الذي يراه هو المندائي، ففي كل ليلة، وفي ساعة بعد منتصف الليل، كان المندائي يقف على الساحل في ورشته منتظراً قدوم زورق الصياد الصغير الذي لن يتأخر طويلاً. يتقدم نجرس نحو الزورق ويناول الأسود الأحدب سلة مليئة بالخبز والطعام والسجائر. يظل الاثنان ينظران إلى بعضهما، نجرس الواقف على الساحل، وملوكي الجالس في مؤخرة الزورق، مريحاً المجذاف على فخذيه:

-إلى متى يا مولكي؟

-لقد خدعوني يا نجرس.

وتتوقف الكلمات بينهما، وعندئذ ينحني المندائي ويمسك مقدمة الزورق ويدفعه بقوة محرراً إياه من رمل الساحل. بعد مرور شهر كامل على اختفائه، ظهر هو وزورقه في النهر بعد الساعة الثالثة من بعد الظهر. حين زحف الزورق قليلاً على رمل الشاطئ، نزل ملوكي منه وسار مترنحاً باتجاه مجموعة من النخيل القصير القامة خلف الورشة. تابعه نجرس وهو يردد:

–ثمل في الظهيرة؟

ركع ملوكي على ركبتيه أمام تلك النخلات، وحفر الأرض بيديه العاريتين، ثم اخرج الزجاجة والكأس اللتين ينسى مكانهما في الصحو. انقلب إلى النهر وغسلهما من التراب والطين العالق بهما. حين نهض واجه نجرس الذي كان يقف خلفه.. سأله:

–أنت ثمل فما حاجتك لهذه القنينة؟

مر من جانب نجرس من دون أن يرد عليه. غاب وراء مخزن الأسماك، وواصل مشيته المترنحة، منعطفاً إلى أول زقاق صادفه، ثم وقف أمام بقالة منشد، وسأله:

–هل لديك صفيحة نفط أبيض؟

–لدى نصف صفيحة فقط.

–هاتها.

ناوله منشد صفيحة القصدير المملوءة حتى نصفها نفطاً أبيض من دون أن يسأله ماذا يفعل بها، بخاصة أن ملوكي أخبره أن يأخذ النقود من نجرس. ظن أن نجرس أرسله في طلب هذا النفط، لكنه فيما بعد، حين اشتعلت الدنيا من حوله، تذكر أن نجرس لا يستخدم النفط الأبيض في عمله بل النفط الأسود.

كانت الشمس ما تزال قرصاً أبيض يجلد الناس والجسرين والشوارع والبيوت والنهر بسياط ملتهبة، عندما بدأ ملوكي يترع كأسه على لسان الأرض، تحت النخلة السامقة، في نفس المكان الذي كان يتسلم فيه رسائله التي جعلت منه إنساناً يستحق العطف لحماقته وبلاهته. لم تختلف عن جلساته السابقة إلا بأمرين: صفيحة النفط التي بجانبه، والوقت المبكر جداً لحفلته. خلال ما كان يكرع كأسه بنفس الطريقة السابقة كان يبكي، يبكي بصمت ليس على حياته، بل على حبه الذي كان ضرباً من الغش والخداع. تذكر الأيام التي صار فيها خادماً من دون أجر لفتاة جاحدة حطمت عظام ظهره وهي صغيرة، تذكر الصفعات القوية التي نالها من أخيها، تذكر الليلة ونصفي اليومين التي أمضاها باكياً وذليلاً ومرمياً في زاوية قذرة من غرفة التوقيف. فكر: إن حبي المزعوم، حبي الذي لا وجود له برغم عظام الهدهد القابعة في جيبي، قد حولني إلى خرقة مسحوا بها كل القاذورات التي شاؤوا أن يزيلوها. ثم انخرط في بكاء صامت طويل.

ثقل رأسه وثقلت أجفانه. حاول أن يقاوم الثقل الذي أخذ يضغط عليه من كل

جانب. حين استيقظ كانت ظلمة الغسق الخفيفة قد حطت على البيوت والشارع والنهر والجسرين. التفت إلى الوراء ليرى إن كان المفوضون الثلاثة قد بدأوا جلستهم المسائية أم لا. بدا عليه الارتياح عندما لم يجدهم. أزال كومة الطين الصغيرة المستعملة كسدادة لصفيحة النفط. نهض على قدميه وكاد يهوي من فوق لسان الأرض إلى الساحل، وبذل كل ما يمتلك من طاقة ليوازن نفسه. رفع الصفيحة إلى ما فوق رأسه وقلبها رأساً على عقب، وعندئذ شعر بالنفط على رأسه ثم تغلغل إلى الأسفل، إلى جسده، إلى كل جزء من جسده، وتشربت بدلته الرمادية المزرقة بالسائل بكاملها، ثم أخذ النفط يسيح منها إلى الأرض. رمى الصفيحة من فوق لسان الأرض إلى الساحل، وبحث عن علبة الكبريت فوجدها مبللة بالنفط، وباءت بالفشل كل محاولاته في إشعال عود منها. وهكذا اتجه إلى الشارع مترنحاً وشاعراً بالحرارة والحكة في كل أجزاء جسمه التي أحدثهما النفط. على رصيف الشارع انتظر شخصاً يمر ليستعير منه علبة كبريت. بعد خمس دقائق أو أكثر قليلاً مر رجل بيده سيجارة. أوقفه ملوكي وأخذ منه علبة كبريت. كان الرجل ينظر إليه مبتسماً وهو يراه يفشل في إشعال عود وراء آخر. طلب ملوكي منه أن يشعل له عوداً، فقام الرجل بذلك بسرعة والابتسامة ما زالت معلقة في وجهه. أخذ ملوكي العود المشتعل منه وقربه من البدلة. رأى الرجل، في اللحظة التي تحولت فيه ابتسامته إلى صرخة، عموداً هائلاً من النار انطلق في اتجاهين، نحو الأعلى وإلى الأسفل، وكادت النار لضخامتها أن تمسكه هو أيضاً لولا فراره السريع. لم يعرف ملوكي أن للنار مثل هذا السعير الهائل. شعر بمعدته تغلي فتقيأ كل ما فيها، كما شعر بقلبه يكبر بسرعة حتى يكاد ينفجر، ومع ذلك ازداد عدد دقاته. لم يكن يريد سوى المزيد من الهواء، وحين أخذ جسده ينفث رائحة الشواء، بحث عن الماء، عن النهر. انطلقت من جوفه الملتهب صرخات لا تشبه أية صرخات يطلقها كائن بشري، وهو يدور حول نفسه، وبدلاً من الاتجاه إلى النهر، توجه راكضاً ومدفوعاً بسعير لا مثيل له نحو صف البيوت. دخل أول بيت رأى من خلال اللهب بابه مفتوحاً. ذعر الساكنون وهم يرون ناراً عظيمة تدخل إلى بيتهم راكضة، ظنوا أنها عجلة سيارة مشتعلة دفعها أحد السفلة إلى داخل دارهم. لكن حين قفزت تلك النار وانطرحت على الأرض، ثم هبت واقفة ودخلت غرفة أفرشتهم، ثم عادت إلى الخروج وصعدت إلى السطح، لتقفز إلى الدار المجاورة.. حين رأوا كل ذلك، ثم رأوا النيران تُخرج ألسنتها الكبيرة من غرفة الأفرشة لتنتشر في كل غرف الدار، تركوا دارهم وفروا مذعورين. كانت تلك النار القافزة، الصارخة، والمتوهجة باستمرار، المنطرحة على الأرض والناهضة ثانية بنشاط

أكبر، قد طاردها الرجال والنساء والأطفال بالحجارة وبقضبان الحديد وبالمجاذيف والمرادي من بيت إلى بيت، تاركة وراءها نيراناً متفجرة أكبر منها. خمسة بيوت من الطابوق خرجت ألسنة اللهب الهائلة راقصة بوحشية من شبابيكها الخارجية. لم تعد سوى النيران والصراخ، صراخ النساء والأطفال والرجال، موجودة في هذا الجزء من الماجدية. شارك المتجمهرون الذين قدموا من الأزقة وساحة الماجدية الوحيدة، في رجم وضرب النار القافزة والصارخة، ونجحوا في إبعادها عن البيوت الأخرى، غير أنها اتجهت بسرعة، وعلى نحو أعمى، إلى أكواخ الصيادين القائمة إلى جانب مخزن الأسماك الكبير. وهكذا اشتعلت نار عظيمة في سبعة عشر كوخاً من القصب والبردي، بعد أن فر الصيادون ونساؤهم وأطفالهم من وجه هذه النار الغاضبة. تضاعف عدد الجمهور في الشارع الذي أضاءته ألسنة اللهب التي ما تزال تطلق أزيزاً من البيوت الخمسة، وأخذت الأكواخ ترمي في الفضاء كتلاً من النيران المتوهجة بشدة. بدا وكأن صراعاً يجري بين النار الراكضة الصارخة وبين الجمهور الذي فقد السيطرة على هدوئه، فأخذ يرمي هذه النار بكل ما تقع يده عليه، وحين تتجه النار نحوه كان يهرب تاركاً الشارع فارغاً أمامها. ثم وجدت تلك النار الغاضبة الطريق إلى النهر.. انحدرت بسرعة هائلة نحوه، وسُمع صوت ارتطامها بسطح الماء، ثم غطست تحته. راقب الناس المجتمعون على كتف النهر، النار التي انبثقت من تحت سطح الماء وقد ازدادت توهجاً، كما راقبوا بقعاً من النار انفصلت عنها، وظلت مشتعلة وطافية ومتهادية مع تيار الماء. ازداد هياج النار الزاعقة وازدادت حركتها العنيفة نحو اليسار تارة ونحو اليمين تارة أخرى، من دون أن تتوقف أو تنطفئ.. فجأة، اندفعت خارجة من النهر واتجهت نحو المنحدر مصحوبة بذلك الصراخ اللاإنساني، وهذا يعني أنها اتجهت نحوهم، فتهيؤوا للفرار. في هذه اللحظة، شق المندائي طريقه بينهم برأس مكشوف، من دون عقال أو كوفية.. شق طريقه مطوّحاً بالرجال والنساء على جانبيه. رآه الجميع ينحدر بسرعة نحو النهر، نحو النار التي بدأت تصعد المنحدر ببطء وهي تدور حول نفسها، ثم رأوه ينشر بطانية ويلف بها تلك النار التي ظلت تطلق ألسنة صغيرة من تحت حواف البطانية.. لف المندائي البطانية بإحكام حول النار التي همدت حركتها وسقطت ملفوفة بالبطانية على الساحل. حين حمل المندائي البطانية بين ذراعيه وصعد بها راكضاً فوق المنحدر، رأى المتجمهرون سحباً كثيفة من الدخان تخرج من طرفي البطانية، وشموا رائحة شواء لحم مقرفة بقيت معلقة في الجو فترة طويلة. أوقف المندائي سيارة حين انطلقت بسرعة نحو المستشفى. شعر المندائي الذي يضم البطانية إلى صدره برأس ملوكي يميل مع

استدارة السيارة يميناً ويساراً. شعر به من وراء البطانية يميل بليونة إلى الجانبين كما لو أن رقبته أصبحت من المطاط المطاوع. عندئذ أطلق المندائي صرخة طويلة مرت بكل المحلات على الطريق وسمرت المارة في أماكنهم.

←←

- 9 -

حين بزغ فجر اليوم السادس لمجلس الفاتحة، سلك جحيل الأزقة المتشابكة بين شارعي الجسر والملعب. دار مع انعطافاتها العديدة وقطع مسافة كبيرة ليعبر النهر من فوق جسر الكحلاء، لكي يتفادى المرور بالسرادق. كانت نفسه المسالمة المتصالحة مع جميع صروف الحياة قد نفرت من هذا المكان، على الرغم من معرفته أن الناس تأتي إليه لتقرأ سورة الفاتحة على روح ابن أخيه. لم يكن جحيل قد كذب أو ظن الظنون السيئة بالأحاسيس التي كانت تعتمل في أعماق نفسه في أيما يوم من الأيام الماضية. وهكذا نما الخوف في قلبه منذ الأيام الأولى لظهور هذا السرادق. كان ظنه بوجود شيء شرير داخل السرادق منذ اليوم الثاني لمجلس الفاتحة، قد انقلب إلى يقين لا يمكن إثباته، لكن أحاسيسه كانت تثبت له ذلك وتؤكده، وما كان جحيل، الرجل الجاهل، البسيط، الطيب والمسالم، يشغل فكرة ليبحث عن الوقائع بشكل مضنٍ ليثبت أن تلك الأحاسيس ترتكز على دعامات حقيقية. غير أن هذا لا يعني أن ظنونه من ذلك الضرب القادم من وراء الغيب، بل أن مخاوفه من تلك الظنون قد جاءت من أكثر المخلوقات واقعية: المفوضون الثلاثة.

أمس مساءً، حين عاد إلى البيت في ساعة متأخرة، يعني بعد أن أطفأ السرادق أضواءه إعلاناً عن عدم استقبال المعزين، وجد المفوضين الثلاثة ينتظرونه في باب البيت، صافحوه واحداً بعد الآخر والدموع في عيونهم، ثم وضع المفوض وليد كمية من الأوراق المالية في يده. قاوم يد المفوض محاولاً عدم أخذها، لكن اللهجة اللينة للمفوض أوقفت حركة يده:

–ما الأمر يا جحيل؟.. هذه النقود من حقك، فالمرحوم كان بمثابة ابنك.

قال جحيل:

-إنها كثيرة.. كيف أردها؟

قال المفوض عدنان:

-مَنْ طالبك بردها؟

أكد جحيل:

-إنها ديون موتى.

قال المفوض جعفر:

-إنها ديون ملوكي التي يجب أن يدفعها الأحياء.

ارتعش جحيل لسماعه هذه الكلمات. طمأنه المفوض وليد:

-ستذهب دفاتر الأسماء مع مياه النهر، فلا تقلق.

وتركوه قلقاً في باب بيته، وظل قلقاً حتى داخل بيته. اضطر برغم نفسه غير المستقرة أن يخرج العلبة المعدنية من باطن الأرض، ويضيف هذه النقود إلى النقود السابقة التي أعطاها له المفوضون الثلاثة، ويعيد دفن العلبة. تيقن في تلك الليلة، وربما للمرة الألف، أنه باع ابن أخيه للمفوضين الثلاثة بهذه النقود.

عندما عبر الساحة باتجاه جسر الكحلاء لم يلحظ أو ينتبه إلى الجسر إلى يساره، فهو لم يرَ الأرض الخلاء بين الجسرين قد امتلأت بالجنود والحافلات الكبيرة والسيارات الصغيرة، كما لم يرَ بائعات الحليب والقيمر والشاي اللواتي توزعن مع أطباقهن وأوانيهن في منتصف الرصيف عُير المعبد بين الشارع والنهر. لكن الذي رأى كل ذلك بوضوح هو الجندي الغريب الذي خرج في الفجر أيضاً من تحت غطاء السرادق الخلفي، ليرمي الزجاجات الفارغة في النهر. اعتقد للوهلة الأولى أن هذا النشاط يحدث كل يوم، وحين سمع نداءات مساعدي السائقين على اتجاهات سياراتهم لم يسرع ليخطف حقيبته من داخل السرادق ويركض ليحصل على مقعد في السيارة التي ستأخذه إلى مدينته، لم يفعل مثلما فعل الجنود قبله أمس وأول أمس. دخل السرادق من نفس المكان الذي خرج منه، أعاد الأريكتين المستعرضتين إلى مكانيهما ونظف الفسحة من كل ما تركته جلسة ليلة أمس. أدار المراوح المنضدية وفتح آلة تسجيل الصوت فسبح صوت المقرئ فوق البيوت والنهر والجنود الذين أداروا رؤوسهم نحو السرادق. حاول بعضهم أن يتوجه إليه، لكن بائعات الفطور أوقفنهم حين أكدن بأصوات واثقة:

-لن يُفتح إلا بعد العاشرة.

أعادوا حقائبهم إلى أماكنها في الأرض وجلسوا عليها. بعد أقل من عشر دقائق انفتح باب بيت مقابل للسرادق، خرج منه صبيان، ولد وبنت، يحملان صينيتين كبيرتين فوق رأسيهما، واتجها نحو باب السرادق. أخذهما الجندي الغريب منهما ثم أعاد سد الباب بعقد الحبال. كانت أسرار السرادق تتكشف بسرعة للغريب. مرت حافلة كبيرة من أمام السرادق وأطلقت صوت منبهها الضاج المزعج، فسقط ثلاثة أو أربعة من أولاد جحيل من الأرائك إلى الأرض لاعنين شاتمين، كما هب المفوض وليد جالساً في الأريكة النائم عليها:

–ألا يكف هؤلاء السائقون عن إطلاق منبهاتهم في باب السرادق؟

أجاب المفوض جعفر وهو مازال متمدداً على أريكته:

–أنهم يفعلون ذلك كما لو أن السرادق ضريح أحد الأولياء الصالحين.

انتبهوا جميعاً إلى صوت المقرئ المرتل لآي الذكر الحكيم. قفز وليد وأطفأ آلة التسجيل، التفت بوجه يحمل بوضوح آثار جلسة ليلة أمس.. قال بغضب:

–مَنْ فعل ذلك؟

أجاب الجندي الغريب:

–أنا.

–لا تفعل ذلك مرة أخرى.

–لماذا؟

–ستجعل الناس يدخلون علينا ويعرفون ما نقوم به.

عادوا إلى النوم من دون أن ينتبهوا، أو من دون أن يهتموا إلى ما يجري في الأرض الخلاء بين السرادق وجسر الكحلاء. أيقظهم صانع القهوة بعد العاشرة بقليل. كانوا يبحثون عن أحذيتهم تحت الأرائك عندما ولجت صواني طعام أبناء السبيل، ثم تبعتها صواني الشاي. اكتشفوا أن السرادق يكاد يكون ممتلئاً بالجنود الذين قفزوا من الأرائك وتحلقوا حول طعام أبناء السبيل. في الخارج، أمام السرادق تساءل المفوض جعفر:

–متى جاء كل هؤلاء الجنود؟

رد عليه المفوض عدنان:

–إنها بعد العاشرة الآن.. دع روح ملوكي تسبح بالرحمة فقد تعذبت كثيراً.

لكنهم عندما التفتوا ناحية جسر الكحلاء، هالهم ما فعلته روح ملوكي

بالماجدية. قال المفوض وليد بدهشة:

–هذه محطة سيارات كاملة.. إنها أكبر من محطة السيارات الرسمية.

مع ذلك، لم يعتبروا ما رأوه خروجاً على المألوف أو القانون، فحافلات المسافرين وسيارات نقل الركاب الصغيرة والمسافرين أنفسهم، لم يمارسوا عملاً يمكن أن يهزأ أو يعبث بهيبة القانون، فالحافلات والسيارات ظلت تنقل المسافرين إلى مقاصدهم، وظل المسافرون يركبون وسائل النقل تلك بنفس طرقهم السابقة. غير أن نقابة النقل بسطت لهم الأمر فيما بعد بطريقة مغايرة تماماً لنظرتهم، فدكاكين الباعة ومحلاتهم والمطاعم والمقاهي الموجودة داخل بناية المحطة أقفرت من الزبائن، وبعبارة لا تتحمل اللبس أو الإبهام: أن المسافرين تركوا المحطة وعبروا إلى هذا الجانب، لأنهم يحصلون على الطعام والشاي مجاناً، إضافة إلى الجلوس في ظل مبرد بهواء المراوح ومكيفات الهواء، ومجاناً أيضاً. وهكذا حين تقدم الحافلات والسيارات إلى المحطة لا تجد أحداً، فاضطر السائقون إلى العبور وراءهم، وهذا يعني أن الخسارة لحقت بالنقابة، فأولئك السائقون لا يدفعون رسوم المحطة، فسياراتهم تأخذ المسافرين من خارجها.. هل رأيتم ماذا يحدث؟..

كان المفوضون الثلاثة يرون ما يجري من مكان آخر، مكان يبعد كثيراً عن المكان الذي نظرت منه النقابة، لذلك قال لهم المفوض وليد:

–ما شأننا بكل هذا؟.. هل تمنعوننا من تقديم الطعام والشاي ثواباً لروح المتوفى؟

لم يواصل مسؤولو النقابة حديثهم السابق المشحون بالاحتجاج، إذ وجدوا أنفسهم في منطقة ينبغي عليهم الانسحاب منها على عجل، وإلا فإنهم سيجدون أنفسهم مطوقين وعاجزين عن الخروج منها، فهم على دراية تامة أنهم في مواجهة ثلاثة من المفوضين المعروفين بقوة الشكيمة المستمدة من صلابة القانون من جانب، والمسندين ظهورهم إلى مجلس فاتحة من جانب آخر.

بعد أقل من ساعة ظهر رهط من رجال الشرطة المسلحين بالهراوات والبنادق بصحبة مسؤولي النقابة. أعادوا الحافلات والسيارات الصغيرة إلى محطة نقل المسافرين من دون مشاكل، لكنهم لم يتحرشوا بالجنود الذين لم يتبعوا الحافلات والسيارات، بل ظلوا متجمهرين ومتوزعين مجموعات صغيرة في الأرض الخلاء. كان باعة الصباح قد انسحبوا تاركين الساحة لباعة الظهيرة، فظهرت عربات تبيع الكباب والتكة والكبة الكروية السابحة في مرقها، ودار بين جمهرات الجنود والمسافرين الآخرين صبيان يبيعون السجائر بالمفرد، وباعة آخرون يعرضون

حاجات لا تخطر على الذهن إلا عند الحاجة إليها كالبطاريات الجافة وملاقط إزالة الشعر ومسامير تنفذ في الجدران المبنية بالسمنت المسلح بالحديد وحبوب منع الحمل وقنابل أعماق المياه لصيد الأسماك وغيرها.

حتى قبل أن يقدم طعام الغداء في السرادق لم يأتِ أحد لا من قاطني الماجدية ولا من محلات المدينة الأخرى في الجانب الآخر من النهر، ليقدم التعازي ويتبرع بالمال كمشاركة في تكاليف العزاء. كان المفوضون الثلاثة لا يجهلون السبب، فكل المعارف وغير المعارف جاؤوا ودفعوا، ولا أحد خلال هذا اليوم جاء سوى الجنود والفقراء وكبار السن من قاطني الماجدية. وهكذا بقيت صفحات الدفاتر التي فتحها المفوضون الثلاثة بيضاً دونما أسماء ودونما أرقام. وهذا يعني أن مجلس الفاتحة ستلحقه خسارة في الموارد المادية. مع ذلك، لم يتسلل القلق إلى المفوضين الثلاثة فيما يخص الطعام، والشاي والقهوة والسجائر، لأنهم لم يدفعوا مالاً مقابلها منذ اليوم الأول لمجلس الفاتحة. لكنهم قلقوا حين فكروا في الأمر من جانبه الاعتباري المتعلق بملوكي ومكانته بين الأموات، أموات الماجدية من ذوي الحيثيات بشكل خاص.

لكن الجندي الغريب أدهش المفوضين الثلاثة وأولاد جحيل التسعة وعلوكي وعلي بن وحيد وعلي بن حسين وعلي بن موسى بقدرته على التنظيم والابتكار، يعني تقديم وتنظيم وجبات الطعام وصواني الشاي والسجائر خلال ساعات التعزية، وفتح باباً جديداً لموارد مالية لم تكن لترد في خاطر أي منهم على الإطلاق. فهذا الغريب الذي لم يخطف حقيبته المخروطية ويتوجه بعد الفطور نحو إحدى الحافلات التي تأخذه إلى مدينته، نظم أوقات تقديم الشاي وفق جدول زمني صارم، وعندئذ أخذت هذه الصواني تظهر مرة في كل ساعة، أما دلة القهوة فكادت تختفي وأصبح ظهورها مرتبط بشخصيات ذات حيثيات، وما عاد الطعام يُقدم لكل مَنْ يدخل السرادق، إنما اقتصر تقديمه على وجبتي الغداء والعشاء، وحتى طعام أبناء السبيل تقرر تقديمه مرتين، الأولى قبل ساعة من وجبة الغداء، والثانية قبل ساعة من وجبة العشاء، وفي كلا المرتين كان أولاد جحيل التسعة يبتلعون ثلاثة أرباع ما في الصحون. كما قام بصرف الصبيان الذين يقومون بحمل صواني السجائر ويدورون بها من دون توقف على الجالسين، فظلت تلك الصواني فوق المنضدة في منتصف السرادق، ومَنْ يريد سيجارة ينبغي عليه التوجه إلى تلك الصواني لأخذها، وهكذا دفع الخجل بالمعزين إلى إخراج علب سجائرهم من جيوبهم. استوعب المفوضون الثلاثة إجراءات الغريب بصعوبة، إذ

لم يكن من ضمن اهتمامهم الاقتصاد في صرف ما يمكن أن يجلب الرحمة إلى روح ملوكي، إنما هم بالغوا في عرض كل ذلك للمعزين في السرادق، وللفقراء، خارجة من أجل أن تتدفق الرحمة على روح صديقهم. غير أنهم بدأوا منذ اليوم الرابع بالشك في نوايا المعزين الذين بدوا وكأنهم لا يرغبون في الابتعاد عن السرادق. كانت وجوه كبار السن والفقراء من قاطني الماجدية تتكرر، وكانت الملابس الخاكية لا تقل، بل تكثر ساعة بعد أخرى.

لكنهم اتفقوا معه بسرعة وساعدوه بوضع طاولة فوقها صينية حين خاطب الجنود:

–نحن نشكر لكم تعازيكم لنا بفقيدنا.. أنتم رجال شجعان وتعرفون ماذا يعني الموت، لأنكم واجهتموه أكثر من مرة... كما تعرفون ماذا يعني مجلس الفاتحة.. ماذا يعني مثل هذا المجلس بالذات.. أنتم رأيتم ماذا يُقدم فيه ومن المعيب أن نذكر كل شيء.. ألا تعتقدون أن مبلغاً مهما كان قيمته تضعونه في تلك الصينية بعد أن تقرؤوا سورة الفاتحة على روح المرحوم يساعد ذويه على تحمل بعض التكاليف؟.. ثم أن هذه المبالغ ستجعل مجلس الفاتحة يواصل تقديم ما يرضي روح المرحوم.. نشكركم على تعازيكم.. ليرحمه الله مَنْ قرأ سورة الفاتحة.

ورفع يديه أمام وجهه وبدأ بقراءة سورة الفاتحة بصوت مسموع. أغلق المفوضون الثلاثة دفاترهم، وتقبلوا تعازي الجنود المضطرين لترك السرادق بعد أن قرؤوا سورة الفاتحة. كانت الصينية قد امتلأت بالأوراق المالية، وكان هواء المراوح المنضدية قد أخذ في بعثرتها. بعد أقل من نصف ساعة استبدل المفوضون الثلاثة الصينية الصغيرة بصندوق من الورق المقوى. كانت مجاميع كبيرة من الجنود قد قدمت من محطة السيارات لتحتل أماكن الجنود الذين غادروا. لكن حين قُدمت صواني الطعام لوجبة الغداء، عاد الجنود الذين خرجوا إلى السرادق مرة ثانية، فاضطر المفوضون الثلاثة أن يوجهوا حملة الصواني بوضع أخريات في الأرض الخلاء بجوار السرادق.

انتهت وجبة الغداء على غير ما كانت تنتهي في الأيام الماضية. عرف المفوضون الثلاثة أن الطباخين حول القزانين وقعوا تحت سطوة الغريب. ما كان الأمر تخميناً أو مجرد توقع، إنما ذكر الطباخون وهم يتصببون عرقاً أمام ألسنة النيران المتوهجة تحت القزانين، إن ذلك الغريب وجه بعدم ملأ الصواني مرة ثانية. وهكذا لم ينل الجنود الذين قدموا فيما بعد على وجبة كان من المؤمل أو المحتمل تقديمها لهم من أجل الرحمة على روح المرحوم، واكتفوا بالشاي الذي كان يُقدم

عندما دخلوا السرادق.

لكن روح ملوكي سلكت سبلاً غريبة بعد أن أهمل المفوضون الثلاثة الوسائل التي مارسوها في الأيام الماضية لإغراقها في بحار من الرحمة. فهذه الروح دفعت الفتيان والصبيان والأطفال الحاملين قدور القصدير إلى محاصرة الطباخين، ثم مهاجمتهم بضراوة حتى كاد يُقلب القزانان. وعلى الرغم من تدخل المفوضين الثلاثة وتكشيرات الطباخين وتهديداتهم، فقد وصل حملة القدور القصديرية إلى ما في داخل القزانين، وبدؤوا بعملية بائسة لنهب الطعام. استسلم المفوضون الثلاثة والطباخون عندما ساهم الجنود الذين حُرموا من وجبة الغداء في غرف الطعام من القزانين، وخلال دقائق اختفى كل ما في القزانين.

جلس المفوضون الثلاثة في مقدمة السرادق بوجوه منقلبة، فجأة، تقافز الجنود منطلقين إلى الخارج وحقائبهم تتأرجح على ظهورهم، إذ ارتفع نداء من الطرف الثاني للأرض الخلاء:

-بغداد.. بغداد..

بعد أقل من ساعة عادت محطة السيارات الجديدة إلى الظهور مرة ثانية، وعبرت وراء الحافلات وسيارات نقل الركاب الصغيرة عربات الباعة من كل صنف، والباعة المتجولون ومجموعة من الرجال والنساء الدائبين على استجداء الصدقات. أغلق مسجل الصوت، لكن الجنود الذين يقصدون مدناً غير بغداد لم يغادروا السرادق، بل نهضوا من الأرائك وتمددوا على الأرض جاعلين من حقائبهم وسائد تحت رؤوسهم. لم يعرف المفوضون الثلاثة ماذا يفعلون أو ماذا يقولون للجنود المتمددين في طول السرادق وعرضه. حتى الجندي الغريب بدا وكأنه فقد حيلته أمام هؤلاء المتعبين الذي قرروا النوم في مجلس فاتحة. لكن المفوضين الثلاثة تسامحوا لا لأنهم عثروا على وسيلة جديدة تجلب الرحمة لروح ملوكي، بل لأنهم يعرفون أن الشمس خارج السرادق أحرقت الأرض وجعلتها تنفث الأبخرة الساخنة. وهكذا تمددوا هم أيضاً على الأرائك تاركين باب السرادق مفتوحاً لمن ينوي الولوج إلى الداخل أو الانقذاف خارجاً.

منذ العصر وحتى اختفاء الغسق، اكتظت الأرض الخلاء بين الجسر والسرادق بالحافلات والسيارات الصغيرة والمسافرين والعربات والباعة. كان الجنود قد اتخذوا، كما لو أنهم عقدوا اتفاقاً مسبقاً، السرادق مكاناً لتجمعهم وتفرقهم. في منتصف الليل باعت البيوت المقابلة لمحطة السيارات الجديدة التيار الكهربائي، فخرجت أسلاك عديدة من تلك البيوت لتنتهي بمصابيح متوهجة بالنور فوق

عربات بيع التكة والكباب والرز والمرق. كان المفوضون الثلاثة يخشون أن تقف الحافلات في باب السرادق، فقد زحفت السيارات حتى لم تترك إلا مترين أو ثلاثة بينها وبين السرادق.

في ليلة اليوم السابع نام العديد من الجنود القادمين من الجبهة في السرادق. كما شارك ثلاثة جنود إضافة إلى الجندي الغريب في الجلسة الحزينة للمفوضين الثلاثة وعلوكي وعلي بن وحيد وعلي بن حسين وعلي بن موسى وأولاد جحيل التسعة، وكانوا جنوداً كرماء جداً إذ دفعوا كل ما جُلب من جورج منصور من جيوبهم.

طوال اليوم السابع لمجلس الفاتحة أصبحت محطة المسافرين الجديدة واقعاً من غير المعقول قبول اختفائه أو تدميره بقوة القانون، فالبيوت التي باعت التيار الكهربائي للباعة شاركت هؤلاء في بيع الشاي والخبز، وبعد الظهر تطور الأمر إلى تحويل غرف الاستقبال إلى مطاعم تقدم الطعام والشاي. ثم أخذت بيوت أخرى تبيع أقداح اللبن البارد، وظهرت نساء بحذاء جدران البيوت يصنعن خبز السياح الذي يبعنه مع البيض المقلي بالسمن. ووجد الأطفال وكبار السن ربحاً وفيراً في بيع أقداح الماء البارد من جرادل تطفو فيها قطع الثلج الكبيرة.

في الساعة التاسعة من مساء اليوم السابع تغلغل الشك والخوف في صدور باعة سوق الماجدية وأصحاب المقاهي، فهم يعرفون مثلما يعرف أي شخص في المدينة، أن مجلس الفاتحة يجب أن يُختم في مثل هذه الساعة أو قبلها بساعة في الأقل، غير أن المفوضين الثلاثة لم يختموه، إنما استمر كشأنه في الليالي الماضية إلى ما قبل منتصف الليل. كان تجار المواشي والقصابون وباعة الخضراوات بالجملة متلهفين لمعرفة ماذا يعني عدم ختم مجلس الفاتحة. فكروا: هل نظل نرسل اللحوم والعجول والخراف والخضروات؟.. إلى متى؟.. ثم لعنوا ملوكي وساعة موته. في تلك الساعة كان المفوضون الثلاثة وجلساؤهم وستة جنود إضافة إلى الجندي الغريب يكرعون كؤوس الحزن على صديقهم الراحل. ثم غرق المفوضون الثلاثة في نوبة بكاء طويلة.. لم يمنعهم ذلك من عب الكؤوس خلالها، وبخاصة أولاد جحيل التسعة. بدأت أبخرة العرق تصعد بسرعة إلى رؤوسهم، فسأل جاسم بن جحيل الأكبر:

–هل صحيح أن ملوكي أحب يا وليد؟

أجابه المفوض وليد وهو ينتحب:

–ليته لم يفعل ذلك.. وليتنا عرفنا مَنْ تكون.. راقبناه وتبعناه لكننا لم نره

يلتقي بأية فتاة.

قال المفوض عدنان:

–يبدو أننا مَنْ اختلق له هذا الحب وجعلناه يقتنع به.

قال علوكي وهو يبكي:

–الرسائل.. تلك الرسائل قتلته.

توقف المفوض جعفر عن البكاء وخاطب علي بن موسى.

–لولا رسائلك تلك..

قال علي بن موسى:

–أنتم مَنْ طلب مني ذلك.

قال المفوض عدنان والدموع في خديه:

–أردنا أن نضحك، وها نحن نبكي.

لم يفهم جاسم الابن الأكبر لجحيل ولا أخوته الثمانية شيئاً مما سمعوه، فمدوا أيديهم إلى كؤوسهم وشاركهم في ذلك المفوضون الثلاثة وعلوكي وعلي بن وحيد وعلي بن حسين وعلي بن موسى والغريب والجنود الستة. اجتاحت المفوضين الثلاثة نوبة بكاء جديدة، وكانوا يبكون بحرقة.

في هذه اللحظات، وفي الظلام تعثر جحيل بخطواته البطيئة حتى وصل باب بيت المندائي.. ناداه بصوت خفيض عدة مرات، وحين لم يأته جواب صاح بأعلى صوته. خرج إليه نجرس من دون غطاء على رأسه.

–نجرس... ماذا أفعل يا نجرس؟

–ماذا؟

–هؤلاء الأنجاس..

–مَنْ؟

–المفوضون الثلاثة وأولادي وعلوكي وعلي بن حسين وعلي بن موسى وعلي بن وحيد.

–ما بهم؟

–قرروا أن يستمر مجلس الفاتحة عشرة أيام.

–عشرة أيام؟.. أهم مجانين؟

–إنهم أنجاس.. إنهم يشربون العرق بعد أن يغادر الناس.

–ماذا قلت؟

–لقد سمعت ما قلته يا نجرس.

رأى جحيل عيني نجرس تلتمعان فجأة في الظلام، ثم سمع صوته:

–إذن، هذا هو السبب في عدم نومهم في بيوتهم.. هل يعرف الناس بذلك؟

–نعم.

–انتظرني.

دخل نجرس إلى بيته ثم خرج بسرعة وعصا غليظة بيده، وخطا إلى الأمام بسرعة وتدحرج جحيل وراءه. وقفا في باب السرادق، ثم دار نجرس حوله وجحيل يتبعه.. صاح المندائي بأعلى صوته:

–اخرجوا يا أولاد الحرام.. عشرة أيام؟.. تشربون العرق في مأتم ملوكي؟.. هيا اخرجوا.. وليد.. جعفر.. عدنان.. أنتم الذين في الداخل.. أنتم يا أولاد الحرام.. لماذا لا تخرجون؟

قال جحيل:

–لا يرد أحد يا نجرس.

–أعطني علبة كبريتك.

ناوله جحيل علبة الكبريت.. عاد يصيح بأعلى صوته:

–سأخرجكم من جحوركم كالجرذان يا أولاد الحرام.

أشعل المندائي عود كبريت وقربه من قماش السرادق. كانت لهبة صغيرة تتراقص بهدوء، فجأة، انطلقت إلى الأعلى مثل صاروخ ألعاب البارود، ثم نزلت إلى الجوانب مدمدمة ولها أزيز، ثم أصبحت كرة هائلة نفثت دخاناً أسود كثيفاً إلى كل الجوانب، وعكست نوراً هائلاً ساخناً على صف البيوت من جانب، وعلى صفحة النهر من جانب آخر، فتراجع المندائي وجحيل والمسافرون الذين هرعوا راكضين ليقفوا إلى جانبهما.

رأى المندائي وجحيل المفوضين الثلاثة وأولاد جحيل التسعة وعلوكي وعلي بن وحيد وعلي بن حسين وعلي بن موسى وستة جنود وشاباً بدشداشة بيضاء يفرون خارجاً من تحت النيران ويختفون في الأزقة المظلمة. ظلت النيران تتأجج مستعرة بخشب الأرائك وحصران القصب، وحين وصلت سيارات المطافئ لم تجد

سوى الجمر الذي خبا توهجه. لم يبق من السرادق الكبير سوى أضلاعه الحديدية المقوسة وعوارضه العليا والجانبية التي سودتها النيران فالتحمت بظلمة الليل.

بغداد

تموز/1999

■■■

صدر للمؤلف

1-النهر والرماد	رواية مطبعة الغري 1973؟
2-المقبرة	رواية مطبعة الأمة .1979
3-ذلك الشتاء البعيد	مجموعة قصص دار الشؤون الثقافية -بغداد .1986
4-الحقول البيضاء	رواية دار الشؤون الثقافية -بغداد 1992.
5-المقطورة	رواية دار الشؤون الثقافية -بغداد .1995
6-الثلوج الساخنة	رواية دار الحرية للطباعة -بغداد .1999
7-حكايات بلا شتاء	مجموعة قصص اتحاد الكتاب العرب -دمشق 1999.

روايات للفتيان :

1-الأبطال الثلاثة	.1985
2-المهربون	.1985
3-رحلة البحارة الشجعان	.1985
4-الأبطال لا يقهرون	1987.

❑❑

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

Formatted

أغنيـــة الصـــياد الصـــغير: روايــة/ محمــد شــاكر الســبع- دمشــق: اتحاد الكتاب العرب، 2001 – 127 ص؛ 24سم.

1- 813.03 س ب ع أ
2- 813.009563 س ب ع أ
3- العنوان
4- السبع

ع- **2001/8/1615** **مكتبة الأسد**

❑❑